

# زدیج

أو القضاء

إلى السلطنة شعرا

من سعادى

في الثامن عشر من شهر شوال سنة ٨٣٧ هجرية

أى بهجة العيون ، وعذاب القلوب ، ونور العقول ، كن أقبل تراب قدميك  
ذلك لا تكادني تحبين ، أو لأنك إنما تحبين على بسط إرمان أد على الورد .  
إليك أمدى هذه الترجمة لكتاب ألفه حكيم قديم أبحث له سعادة الفراغ  
نسى نفسه بالثناء قصة زديج ، وهى قصة تقول أن ذكرى بما يظهر أنها تقول .  
وأرسل إليك أن تقرئها وتقديرها . نسألك فى ربح الحياة ، ومع أن الذات  
كلها تسعى إليك ، ومع أنك حسناء ، وأن ذكائك يضيف إلى جمالك جالا ،  
ومع أن الثناء عليك متصل منذ يقبل الليل إلى أن يسفر النسيم ، وأن من  
شان هذا كله أن يعاهد بك وبين التمسيد . فأنت على رغم هذا كله راجحة  
العقل مرفقة الذوق ، وقد سمعك تتحدثين فإذا أنت أرحم عقلا من الدراويش  
ذوى الفنى الطوال والفلائس العديدة . وأنت رقيقة لا تحين الاوثاب ، وأنت  
رقيقة دون أن تنتهى بك البرقة إلى الضحك . وأنت محبنة مع العلم بمواضع  
الاحسان . وأنت تحين أصدقاءك ولا تعرضين لعداوة أحد . وأنت لا تزدين  
عقلك بهرج الفية ، وأنت لا تقولين السيئة ولا تأثمت على كثرة ما يدشوك  
إلى ذلك . ثم إن نفسك قد ظهرت لى دائما قوية فقام حنك . بل إن لك خطا  
يسرا من الفلسفة خلت على أن أثير أنك ستؤثرين أكثر من غيرك هذا  
الكتاب الذى ألفه حكيم .

وقد كتب أول الأمر فى اللغة الكلدانية الى لا تنهيهما أنت ولا أنيهما  
ألا ، ثم ترجم إلى العربية ليتلوه به السلطان العروف أولوح باب . كان ذلك

## رسالة إهداء قصة زديج

## إلى السلطنة شعرا

من سعدى

في الثامن عشر من شهر شوال سنة ٨٢٧ هجرية

أى بهجة العيون ، وعذاب القلوب ، ونور العقول ، لن أقبل تراب قدميك  
لأنك لا تكادين تمشين ، أو لأنك إنما تمشين على بسط إيران أو على الورد .  
إليك أهدى هذه الترجمة لكتاب ألفه حكيم قديم أتيحت له سعادة الفراغ  
فسلى نفسه بانشاء قصة زديج ، وهى قصة تقول أكثر مما يظهر أنها تقول .  
وأتوسل إليك أن تقرئها وتقديرها . فمع أنك فى ربيع الحياة ، ومع أن اللذات  
كلها تسعى إليك ، ومع أنك حسناء ، وأن ذكاءك يضيف إلى جالك جالا ،  
ومع أن الثناء عليك متصل منذ يقبل الليل إلى أن يسفر الصبح ، وأن من  
شأن هذا كله أن يباعد بينك وبين القصد ، فأنت على رغم هذا كله راجحة  
العقل مترفة الذوق ، وقد سمعتك تتحدثين فاذا أنت أرجح عقلا من الدراويش  
ذوى الحى الطوال والقلانس المحددة . وأنت رفيقة لا تحيين الارتياب ، وأنت  
رفيقة دون أن تنتهى بك الرقة إلى الضعف . وأنت محسنة مع العلم بمواضع  
الاحسان . وأنت تحبين أصدقاءك ولا تتعرضين لعداوة أحد . وأنت لاتزينين  
عقلك بهرج الغيبة ، وأنت لا تقولين السوء ولا تأتينه على كثرة ما يدعوك  
إلى ذلك . ثم إن نفسك قد ظهرت لى دائماً تقية لقاء حسنك . بل إن لك حظا  
يسيراً من الفلسفة حملنى على أن أقدر أنك ستؤثرين أكثر من غيرك هذا  
الكتاب الذى ألفه حكيم .

وقد كتب أول الأمر فى اللغة الكلدانية التى لا تفهمينها أنت ولا أفهمها  
أنا ، ثم ترجم إلى العربية . ليتلهى به السلطان العروف أولوج بب . كان ذلك



## الفصل الأول

### الأعور

كان يعيش في بابل أثناء حكم الملك مؤبدار ، قتي يسمى زديج ، وقد فطر على طبع كريم زادته التربية كرمًا . كان غنيا ، وكان في ريعان الشباب ، ولكنه كان على ذلك يعرف كيف يكبح جماح شهواته ، لم يكن يتكلف ، ولم يكن يحرص على أن تكون له الكلمة الأخيرة دائماً ، وكان يعرف كيف يقدر ضعف الناس . وكان الناس من حوله يدهشون لأنهم لم يروه قط على ما كان يمتاز به من الذكاء يهزأ بهذه الجمل الغامضة المتنافرة الصاخبة ، ولا بهذه الغيبة الجريئة ، ولا بهذه القرارات الجاهلة ، ولا بهذه السخافات الفجة ، ولا بهذا الضجيج الباطل ، بما كان أهل بابل يسمونه حديثاً . وكان قد تعلم من الكتاب الأول من آثار زرادوشث أن الاعتداد بالنفس كرهة ففحقها الريح ؛ فألسر ثقب فيها يخرج منها زوايع . وكان من أخص صفات زديج أنه لم يكن يفاخر بازدراء النساء أو اختلاهن . وكان كريماً لا يكره أن يحسن إلى الجاحدين ، يتبع في ذلك هذه الحكمة البالغة من حكم زرادوشث : « إذا أكلت فأطعم الكلاب ، وإن أغراها ذلك بعضك » . كان حكيماً كأحسن ما يكون الحكيم ؛ لأنه كان حريصاً على معاشرة الحكماء . عرف علم القدماء من الكلدانيين ؛ فلم يكن يجهل أصول الطبيعة التي كانت تعرف في ذلك الوقت ، وكان يعرف مما بعد الطبيعة ما عرف الناس في كل عصر ، أي قليلا من الأشياء . وكان مقتنعاً كل الاقتناع بأن العام يشتمل على خمسة وستين وثلاث مئة يوم وربيع يوم ، على رغم الفلسفة الجديدة في عصره ، وبأن الشمس هي مركز الكون . وكان يؤثر الصمت في غير غضب ولا ازدراء إذا قال له كبار الكهنة إنه سيئ العقيدة ، وإن من الخروج على الدولة أن يعتقد الإنسان أن الشمس تدور حول نفسها ، وأن العام يأتلف من اثني عشر شهراً .

وقد اعتقد زديج أن من الممكن أن يكون سعيداً ؛ فقد كان يملك ثروة ضخمة ، وكان له من أجل ذلك أصدقاء كثيرون ، وكان جيد الصحة ، رائق الوجه ، مستقيم العقل ، معتدل المزاج ، له قلب مخلص نبيل ، وكان يجمع التزوج من سمير التي كانت تمتاز من فتيات بابل جميعاً بمولدها وجمالها وثروتها . وكان يعطفه عليها ميل نقي متين ، وكانت هي تحبه حباً عنيفاً ، وكانا يدنوان من اللحظة السعيدة التي كانت ستجمع بينهما ؛ ولكنهما ذات يوم كانا يتنزهان معاً عند باب من أبواب بابل في ظلال النخيل التي تزين شاطئ الفرات ، وإذا هما يريان رجلاً يقبلون عليهما مسلحين بالسيوف والسهام ، وكانوا نفرأ من أتباع الفنى أوركان قريب أحد الوزاء ، الذى خيل إليه متملقو قريبه الوزير أن كل شىء مباح له . ولم يكن على شىء من ظرف زديج أو خلقه ، ولكنه كان يرى نفسه خيراً منه ، وكان مغيضاً محققاً لأنه لم يكن أثر عند الناس من زديج . وقد خيلت إليه هذه الغيرة التي لم تأت إلا من الغرور أنه يحب سمير . وقد اختطفها أتباعه وكانوا من العنف بحيث آذوها ببعض الجراحات ، وأسألو بذلك دم حساء كان منظرها وحده خليقاً أن يشيع الحنان في أنمار جبل إيمايوس ، وكانت تشق السماء بصيحات الشكاة ، وكانت تدعو : « أى زوجى العزيز إني أترع انتزاعاً من أحب الناس إلى » . لم يكن يشغلها ما كانت تتعرض له من الخطر لأنها لم تكن تفكر إلا في زديج العزيز . وقد دافع عنها زديج بما تتيح الشجاعة والحب من قوة ونجدة ، ولم يكن يعينه إلا عبدان من رقيقه وقد هزم المغيرين مع ذلك ، ورد سمير إلى دارها دامية مغشياً عليها ، فلما أفاق فتحت عينيها رأت محورها ، فقالت له : « أى زديج لقد كنت أحبك حب الزوج ، فأما الآن فانى أحبك كما أحب من أنا مدينة له بالشرف والحياة . » ولم ير الناس قط قلباً أشد تأثراً من قلب سمير ، ولا رأى الناس قط فما أشد سحرأ يعرب عن شعور ساحر بالفاظ من نار يملها الاعتراف بالجميل والاندفاع في الحب الذى يملؤه الحنان من فيها . وكان جرحها يسير ، فبرئت منه في وقت قصير . أما جرح زديج فكان أشد خطراً أصابه سهم قريباً من إحدى عينيهِ فأحدث جرحاً عميقاً . ولم تكن سمير تطلب إلى الآلهة إلا شفاء عشيقها . وكانت عيناها غارقتين في الدموع آناء الليل وأثناء النهار ، وكانت تنتظر الوقت الذى تستطيع فيه عينا

زديج أن تستمتعا بتلقى لحظها ؛ ولكن دملا ظهر افي العين الجريحة  
فأنذر بخطر عظيم . فذهب الرسل وأبعدوا حتى وصلوا إلى منفيس يدعون  
الطبيب العظيم هريس الذي أقبل تحف به حاشية ضخمة . وقد فحص  
المريض ثم أعلن أنه سيفقد عينه . وتنبأ حتى باليوم والساعة اللذين ستقع  
فيهما هذه الكارثة ، قائلاً : « لو قد أصاب الجرح عينه اليمنى لأبرأته ،  
أما جراحات العين اليسرى ، فليس لها شفاء . » وقد رثت بابل كلها لزديج ،  
وأعجبت مع ذلك بما امتاز به هرميس من علم عميق . ولم يمض يومان حتى  
انفجر الدم من تلقاء نفسه وبرى زديج براءً تاماً . هنالك ألف هرميس  
كتاباً أثبت فيه أنه لم يكن من حق زديج أن يظفر بالشفاء . ولم يقرأ زديج  
هذا الكتاب ، ولكنه لم يكده يستطيع الخروج من داره حتى تهياً لزيارة تلك  
التي كانت معقد أمله في السعادة ، والتي كان حريصاً من أجلها وحدها على  
أن تكون له عينان . وكانت سمير قد ذهبت إلى الريف منذ ثلاثة أيام . وقد  
عرف زديج في طريقه إليها أن هذه الحسنة لم تكده تعلم أن حبيبها قد يفقد إحدى  
عينيه حتى أعلنت أنها لا تطيق العور وتزوجت أوركان من ليلتها تلك . فلما  
نمى إليه هذا الخبر خر مغشياً عليه وانتهى به الألم إلى حافة القبر ، وقد طالت  
عنته ، ولكن العقل تغلب على الحزن ، بل وجد شيئاً من العزاء في قسوة  
ما عانى من الآلام .

ثم قال لنفسه : « أما وقد لقيت هذا الجموح القاسي من هذه الفتاة التي  
نشأت في القصر ، فسألتخذ لى زوجاً من بنات الشعب . » فاختار أزورا وهي  
أحكم بنات المدينة وأحسنهن مولداً . فاقترن بها وعاش معها شهراً ملؤه العطف  
والحنان ، ولكنه لاحظ فيها شيئاً من خفة وميلاً شديداً إلى اعتقاد أن أعظم  
الشبان حظاً من الجمال هم أصحاب الحظ العظيم من الفضيلة والذكاء .

## الفصل الثاني

### الأنف

وذات يوم أقبلت أزورا من نزهتها ، غاضبة ، ثائرة ، صاحبة . قال لها : « ما بك يا زوجي العزيزة ؟ وما عسى أن يخرجك من طورك إلى هذا الحد ؟ » قالت : « واحسرتاه ! لو رأيت النظر الذي رأيته لهاجك ما يهيجني من الغضب . لقد ذهبت أعزى الأرملة الشابة خسرو التي أقامت منذ يومين اثنين قبراً لزوجها الشاب . وقد عاهدت الآلهة أثناء حزنها على أن تقيم على هذا القبر ما جرى ماء هذا الجدول قريباً منه . » قال : ديج : « هذه امرأة كريمة قد أحبت زوجها حقاً . » قالت أزورا : « آه لو عرفت ما كان يشغلها حين زرتها ! » « ماذا كان يشغلها أى أزورا الحسنة ؟ » « كانت تحول الجدول من مجواه » . ثم اندفعت في لوم طويل وهجاء عنيف حتى ضاق زديج بهذه الفضيلة المتكلفة . وكان له صديق اسمه كادور ، وكان من بين هؤلاء الشبان الذين كانت أزورا تؤثرهم لأنهم على حظ عظيم من الأمانة والكفاية ؛ فأظهره على جليلة أمره ، واستوثق من وفائه بما أهدي إليه من هدايا قيمة . ومضت أزورا لتتفق عند إحدى صديقاتها في الريف يومين ثم عادت في اليوم الثالث إلى دارها . وهناك أعلن إليها الخدم وهم ينتحبون ، أن زوجها قد مات فجأة من ليلته تلك ، وأنهم لم يجرؤوا على أن يحملوا إليها نبأ الفاجعة حيث كانت تستجم ، وأنهم قد فرغوا الآن من دفن زديج في قبر أسرته هناك في طرف الحديقة . فأجهشت بالبكاء وانتزعت شعرها ، وأقسمت لتقضي على نفسها بالموت . فلما كان المساء استأذنها كادور في أن يتحدث إليها فبكيا معاً . فلما كان الغد بكيا أقل مما بكيا أمس وجلسا معاً إلى الغداء . وأسر إليها كادور أن صديقه أوصى إليه بمعظم ثروته ، ثم لمح لها بأنه يرى السعادة في أن يقاسمها ثروته . هنالك بكت السيدة ثم غضبت ، ثم لانت ، وكان العشاء أطول من الغداء ، وكان الحديث

أدنى إلى الثقة ، وأنتت أزورا على الفقيد ، ولكنها اعترفت بأنه لم يخل من بعض العيوب التي يرى منها كادور .

وفي أثناء العشاء شكّا كادور ألماً عنيماً في الطحال ، فقلقت السيدة واهتمت ، وأحضرت كل ما كان عندها من طيب ، لعلها تجد من بينه ما يكون فيه شفاء للطحال ، وأسفت أشد الأسف لأن هرمس العظيم لم يطل الإقامة في بابل ، بل تفضلت فلمست موضع الألم من جسم كادور . قالت له في عطف : « أعرضة أنت لهذا الألم ؟ » قال كادور : « إنه ألم يدينني غالباً من القبر ، وليس له فيما علمت إلا دواء واحد يستطيع أن يرفه على ، وهو أن يوضع على جنبي أنف رجل مات من أمسه . » قالت أزورا : « ياله من دواء غريب . » قال كادور : « ليس أغرب من تائم السيد أرنو<sup>(١)</sup> التي يعالج بها الفالج . » وكان هذا الرد مضافاً إلى كفاية هذا الفتى مقنعاً آخر الأمر للسيدة . قالت : « وأخيراً إذا عبر زوجي من حياة أمس إلى حياة غد على جسر تشينافار ، فلن يرده الملك عزرائيل عن العبور لأن أنفه أقصر قليلاً في حياته الثانية منه في حياته الأولى . » ثم أخذت موسى ومضت إلى قبر زوجها فسقته بدمعها ، ثم دنت تريد أن تجدع أنف زديج الذي رآته مستلقياً في قبره . هنالك ينهض زديج حامياً أنفه باحدى يديه ، راداً موسى باليد الأخرى ، قائلاً : « سيدى لا تلوى الأرملة خسرو فالتفكير في جدع أنفى كالتفكير في تحويل الجدول عن مجراه . »

(١) كان يعيش في بابل لذلك الوقت رجل يسمى أرنو وكان يداوى الفالج ويتقيه بتائم تعلق في المنق .

### الفصل الثالث

## الكلب والجواد

وقد تبين زديج ، كما هو مقرر في كتاب زند ، أن الشهر الأول من شهور الزواج هو شهر العسل ، وأن الشهر الثاني هو شهر الشيخ . ثم اضطر بعد قليل إلى أن يطلق أزورا التي أصبحت بغیضة العشرة وطلب السعادة في درس الطبيعة . وكان يقول : « ليس أسعد من رجل فيلسوف يقرأ في هذا الكتاب العظيم الذي نشره الله أمام أعيننا وهو الطبيعة . فالحقائق التي يستكشفها القاري خالصة له ، يغذو بها نفسه ويرفعها ويعيش هادئاً مطمئناً ، لا يخاف من الناس شيئاً ولا يتعرض لأن تدنوا منه زوجه الرفيقة به لتجدهم أفقه » .

وقد امتلأ بهذه الخواطر ، واعتزل في دار ريفية على شاطئ الفرات . وفي هذه الدار لم يكن يشغل نفسه بحساب ما يجري تحت أقواس الجسور من الماء ، ولا ما يسقط من خط مكعب من المطر في شهر الفأر أو في شهر الشاة . ولم يكن يتخيل أن يتخذ الحرير من نسج العنكبوت أو الخزف من حطام القوارير ، ولكنه درس في عناية خصائص الحيوان والنبات ، ولم يلبث أن انتهى إلى مقدار من الفطنة أظهره على ألف من الفروق بين أشياء لم يكن الناس يرون بينها إلا تشابهاً .

وذات يوم كان يمشي قريباً من غابة صغيرة ، فرأى خصيئاً من خصيان الملكة يسرع إليه ومن ورائه جماعة من الضباط يظهر عليهم قلق شديد ويعدون هنا وهناك كأنهم قوم حائرون يبحثون عن شيء عظيم الخطر قد فقدوه . قال الخصي الأول : « ألم تر كلب الملكة يا فتى ؟ » قال زديج في تواضع : « إنما هي كلبة لا كلب » . أجاب الخصي الأول : « صدقت » . أضاف زديج : « إنها كلبة صغيرة جداً وقد ولدت منذ وقت قصير وهي تطلع برجلها الأمامية اليسرى ، ولها أذنان منسرفتان في الطول » . قال الخصي الأول مجهداً : « فقد رأيتهما

إذن ؟ » أجاب زديج : « لا ، لم أرها قط ، ولم أعلم قط أن للملكة كلبة » .  
وفي الوقت نفسه بالضبط على نحو ما تجرى عليه المصادفات الغربية أفلت  
أجمل خيل الملك من يد سائسه وهام في سهل بابل . وأقبل كبير الساسة  
ومن ورائه أصحابه يبحث عن هذا الجواد في لهفة تشبه لهفة الباحثين عن  
الكلبة . واتجه كبير الساسة إلى زديج يسأله : « رأيت جواد الملك ؟ » قال  
زديج : « إنه أحسن الجياد ركضاً ، إنه يرتفع في الجو خمسة أقدام ، وإن  
حذاه صغير جدا ، وله ذيل طوله ثلاثة أقدام ونصف قدم ، وشكائهم لجامه من  
ذهب معياره ثلاثة وعشرون قيراطاً ، وسنابكه من فضة معيارها أحد عشر  
دانقاً » . قال كبير الساسة : « أى طريق سلك ؟ وأين يكون ؟ » قال زديج :  
« لم أره ولا سمعت به قط » .

فلم يشك كبير الساسة ولا الخصى الأول في أن زديج قد سرق جواد الملك  
وكلبة الملكة ، فقاده أمام جماعة القضاة الذين قضوا عليه بالجلد وبأن ينفق  
ما بقى من حياته في سيبيريا . ولم يكده الحكم يصدر حتى وجد الباحثون الجواد  
والكلبة ، واضطر القضاة في ألم إلى أن يغيروا حكمهم ، ولكنهم قضوا على  
زديج بغرامة قدرها أربع مئة مثقال من الذهب لانهكاره رؤية ما رأى . ولم يكن  
به من أداء الغرامة أولاً ثم يؤذن له بعد ذلك بالدفاع عن نفسه أمام القضاة ،  
وقد دافع عن نفسه قائلاً :

« يا نجوم العدل ، يا كهوف المعرفة ، يا مرايا الحقائق ، أتم الذين  
لهم ثقل الرصاص ، وصلابة الحديد ، وإشراق الماس ، وكثير من خصال  
الذهب . أما وقد أذن لي بالحديث أمام هذه الجماعة الجليلة ، فاني أقسم  
بأورزما . ما رأيت قط الكلبة المحترمة التي فقدتها الملكة ، ولا الجواد المقدس  
الذى فقده ملك الملوك . وإليك ما عرض لي : لقد كنت أنتزه قريباً من الغابة  
الصغيرة حيث رأيت الخصى الجليل والسائس العظيم البعيد الصوت ، فرأيت  
على الرمل أثر حيوان ، فتفرست في يسر أنها آثار كلب صغير . ورأيت خطوطاً  
خفافاً طويلاً قد طبعت على مرتفعات صغار بين آثار الأرجل ، فعرفت أنها كلبة قد  
حفلت أطباؤها قتدلت ، وأنها لذلك قد ولدت منذ أيام . ورأيت آثاراً في اتجاه آخر  
مجاورة لآثار الرجلين الأماميتين ، فعرفت أن للكلبة أذنين مسرعتين في الطول .  
ولاحظت أن الرمل أقل تأثراً بأحدى الأرجل منه بالثلاث الأخرى فثبنت أن

كلبة ملكتنا الجلييلة عرجاء شيئاً ما إن أذن لى فى أن أتحدث على هذا النحو .  
 « أما جواد ملك الملوك ، فقد كنت أسعى فى طرق هذه الغابة ، فرأيت  
 آثار السنايك لجواد ، ورأيتها كلها تقع على مسافات متساوية فقلت لنفسى هذا  
 فرس كامل الركض . وكان تراب الشجر فى طريق عرضها سبعة أقدام قد  
 زال عن يمين وشمال فى ارتفاع قدره ثلاثة أقدام ونصف قدم ، فقلت لنفسى :  
 « إن لهذا الفرس ذيلًا بهذا الطول قد أزال بخطواته التراب عن هذه الأشجار » .  
 ورأيت تحت الشجر الذى يمد من أغصانه مهذاً يرتفع خمسة أقدام ورقاً حديث  
 عهد بالسقوط ، فعرفت أن هذا الجواد قد مس الغصون ، وأن ارتفاعه خمسة  
 أقدام . أما شكيمته فيجب أن تكون من ذهب معياره ثلاثة وعشرون قيراطاً  
 لأنه حك بها حجراً يقاس به الذهب وقد جربته . ثم عرفت آخر الأمر من آثار  
 سنايكه على حجر من نوع آخر أن هذه السنايك من فضة معيارها أحد عشر دانقاً .  
 وقد أعجب القضاة جميعاً بدقة زديج وفطنته . وارتفع أمر هذه القصة  
 إلى الملك والمملكة ، فلم يكن للناس حديث فى القصر إلا زديج . ومع أن جماعة من  
 الكهنة قد أشاروا بتحريقه لأنه ساحر ، فقد أمر الملك أن ترد إليه غرامة أربع مئة  
 المثقال من الذهب التى فرضت عليه . وقد أقبل الكتاب والحجاب والنواب إلى  
 داره فى موكب عظيم يحملون إليه المثاقيل أربع المئة ، ولم يحتجزوا منها إلا ثلاث مئة  
 وثمانية وتسعين مثقالاً على أنها نفقات القضاء ، وطلب خدامهم بعض العطاء .  
 وقد رأى زديج إلى أى خطر يتعرض الانسان حين يكون واسع العلم ،  
 وعاهد نفسه على ألا يقول ما يرى حين تسنح له أول فرصة .

وقد سنحت هذه الفرصة بعد وقت قصير . فقد هرب سجين من سجن  
 الدولة ومرو من تحت نافذته . فلما سئل زديج أجاب بأنه لم ير شيئاً . ولكن  
 الحجة أقيمت عليه أنه كان ينظر من نافذته ، وقضى عليه بغرامة قدرها خمس مئة  
 مثقال من ذهب ، وشكر هو قضاته لأنهم رفقوا به ، كما جرت العادة فى بابل أن  
 يرفع المحكوم عليهم شكرهم إلى القضاة . قال زديج لنفسه : « يا لله ! إن الانسان  
 لخليق بالرثاء حين يتنزه فى غابة مرت بها كلبة الملكة وجواد الملك ، وإنه لخطر  
 أن ينظر الانسان من نافذته ، وإنه لعسير أن يسعد الانسان فى هذه الحياة . »

## الفصل الرابع

### الحسود

أراد زديج أن يتعزى بالفلسفة والصداقة عما جر الحظ عليه من الآلام . وكانت له في ضاحية من ضواحي بابل دار أنيقة قد زينت في ذوق ، جمع فيها ألوان الفنون وضروب اللذات التي تليق بالمتقف الكريم . فكانت خزانة كتبه مفتوحة في الصباح للعلماء جميعاً ، وكانت مائدته في المساء ممدودة لكرام الرفاق . ولكنه لم يلبث أن تبين أن خطر العلماء شديد ؛ فقد أثرت خصومة عنيفة حول قانون من قوانين زرادشت كان يحظر أكل العنقاء . قال بعضهم : « كيف يحرم أكل العنقاء مع أنها غير موجودة ؟ » وقال بعضهم : « يجب أن تكون موجودة ما دام زرادشت قد حرم أكلها » . وقد أراد زديج أن يوفق بين المختصمين فقال : « إذا وجدت العنقاء فلنجتنب أكلها ، وإذا لم توجد فليس إلى أكلها سبيل ، وكذلك نطيع جميعاً أمر زرادشت » . وكان هناك عالم قد ألف كتاباً من ثلاثة عشر مجلداً في خصائص العنقاء ، وكان فوق ذلك من كبار أصحاب الكرامات ، فأسرع إلى عظيم من الكهنة يسمى يبيور ، وكان أشد الكهنة حمقاً ، وأشدهم من أجل ذلك تعصباً ، فاتهم أمامه زديج . وكان هذا الكاهن خليقاً أن يذيق زديج عذاب الهون تمجيذاً للشمس ، وأن يتلوف في أثناء ذلك كتاب زرادشت راضى القلب مطمئن الضمير . ولكن الصديق كادور - وصديق واحد خير من مئة قسيس - زار يبيور الشيخ وقال له : « لتحي الشمس ، ولتحي العنقاء ! احذر أن تعاقب زديج ، فهو قديس ، يملك في داره ضرباً من العنقاء ، ولكنه لا يأكل منها . وخصمه الذي يتهمة صاحب بدعة يزعم أن للأرنب رجلاً مشقوقة ، وأنها ليست حيواناً نجساً » . قال يبيور وهو يهز رأسه الأصلع : « هذا حسن فلنعذب زديج لأنه ذكر العنقاء بالسوء ، ولنعذب خصمه لسوء رأيه في الأرنب » . وقد استطاع

كادور أن يصلح الأمر بواسطة غانية من غواني الشرف كان قد أولدها ولداً ، وكانت لها مكانة ممتازة. عند جماعة الكهنة ، ولم يعذب أحد . فجميع لذلك بعض العلماء وتنبأوا بسقوط بابل . وصاح زديج : « ما قوام السعادة ؟ كل شئ في هذا العالم يضطهدني حتى الكائنات التي لا توجد » . ومقت العلماء وأزعم ألا يحيا إلا مع أصدقاء لذته .

ثم جعل يجمع في داره أشرف الرجال وأجمل النساء من أهل بابل ، وكان يولم لهم ولائم أنيقة ، ويقوم بين يديها بفنون من الموسيقى وضروب من الأحاديث العذاب التي حرص على أن تبرا من تكلف النكتة ؛ لأن هذا التكلف هو أقرب الطرق إلى إفساد الذوق وإفساد الصلات بين الناس . ولم يكن للغرور أثر في تخيير الأصدقاء ولا في تخيير أصناف الطعام ؛ لأنه كان يؤثر الحقائق على المظاهر ، فيظفر من الأكبار والتقدير بما لم يكن يريد .

وكان يقيم في دار أمام داره أريماز ، رجل كان منظره البشع يصور سوء سيرته . كان الحسد يأكل قلبه والكبر ينفخ جسمه ، وكان على ذلك مملا لكثرة تكلفه في الحديث . لم يتح له النجاح قط فكان يتعزى عن ذلك بالغبية . وكان على ثرائه يجد أشق الجهد في أن يجمع حوله المتملقين . وكانت ضوضاء العربات التي تدخل دار زديج كل مساء تؤذيه ، وكان الثناء على زديج يزيد حنقا إلى حنق . وكان يلم بدار زديج أحيانا ويجلس إلى المائدة دون أن يدعى إليها ، فكان يفسد بمحضره بهجة الجماعة ، كما يقال عن بعض الطير البغيضة : إنها تفسد ما تمس من الطعام . وقد هم ذات يوم أن يولم تكريما لأحدى السيدات ، ولكنه بدا له فلم يستقبلها وتناول العشاء عند زديج . وكان مرة أخرى يتحدث إلى زديج في القصر وهما يسعيان ، فلقبهما أحد الوزراء ، وإذا هذا الوزير يدعو زديج إلى طعامه دون أن يدعو صاحبه . وأشد أنواع العداوة لا يعتمد غالبا على أسباب أعظم خطرا من هذه الأسباب التافهة . وقد أزعم هذا الرجل الذي كان يعرف في بابل كلها بالحسود أن يهلك زديج لأن الناس كانوا يلقبونه بالسعيد . وفرص الإساءة تسنح مئة مرة في اليوم على حين لا تسنح فرصة الإحسان إلا مرة واحدة في العام ، كما يقول زرادشت . وقد زار الحسود ذات يوم زديج ، فلقبه يتنزه في الحديقة مع صديقين وسيدة حسنة كان يوجه إليها بين حين وحين بعض الغزل لا يريد به أكثر من قوله .

وكان الحديث يدور حول حرب انتصر فيها الملك على أمير من عماله في أركانيا . وكاد زديج قد أشاد بشجاعة الملك ، وجعل يثنى عليه ويثنى على هذه السيدة . وقد أخذ لويحة وكتب عليها أبياتاً أربعة دفعها إلى السيدة لتقرأها . فطلب إليه أصدقائه أن ينشد لهم إياها ، فمنعه من ذلك التواضع أو شئ من الاعتداد بالنفس ، كما يكون عند الرجل الكريم . وكان يعلم أن الشعر المرتجل لا يلائم إلا من وجه إليه من الناس ، فخطم لويحته التي كتب فيها هذه الأبيات شطرين ، وألقاها بين جماعة من الورد ، ثم طال البحث عنهما في غير غناء . وقد تلبث الحسود في الحديقة بعد انصراف الجماعة ، وألح في البحث حتى وجد شطراً من شطري اللويحة . وكانت اللويحة قد حطمت بحيث أصبح كل شطر من أشطر الأبيات مستقلاً يدل على معنى خاص . وأرادت المصادفة الغريبة أن تدل هذه الأبيات المشطورة القصار على معنى يصور أبشع هجاء للملك ؛ فقد كان يقرأ فيها :

بأفبح جريمة

ثبت على العرش

من هو في السلم العام

عدو وحيد

وقد سعد الحسود لأول مرة في حياته ؛ فبين يديه ما يمكنه من أن يهلك رجلاً خيراً محبباً إلى النفوس . وقد ملأته هذه السعادة القاسية ، فأوصل إلى الملك هذا الهجاء الذي خطته يد زديج ، وإذا زديج يلقي في السجن ومعه السيدة وصديقه . ثم نظرت قضيته على عجل دون أن يؤذن له بالدفاع عن نفسه . فلما أحضر لسمع الحكم عليه مر في طريقه بالحسود الذي قال له إن شعره سخيـف لا قيمة له . ولم يكن زديج يزعم أنه شاعر مجيد ، ولكنه كان غارقاً في اليأس لأخذه بجريمة هجاء الملك ، ولأنه يرى سيدة وصديقين يظنون في السجن مع أنهم لم يقتربوا إثماً . ولكن كذلك كانت قوانين بابل . وقد سيق إلى العذاب ، فجعل يسلك طريقه بين جماعة من المستطلعين لا يستطيع أحد منهم أن يظهر رثاء له أو عطفاً عليه ، وإنما كانوا يسرعون إليه لينظروا في وجهه وليتبينوا أيستقبل الموت مبتسماً له ، مرتاحاً إليه . وكانت أسرته

وحدها حزينه لأنه لم يترك لها ميراثاً ؛ إذ كانت ثلاثة أرباع ثروته مصادرة لخزانة الملك وربعها مصادراً مكافأة للحسود .

وبينا كان زديج يتبها للقاء الموت طارت ببغاء الملك من إحدى شرفات القصر إلى حديقة زديج فوقعت على جماعة من الورد . وهناك كانت خوخة قد سقطت من إحدى الأشجار فأصابت قطعة من لويحة من لوحات الكتابة فلصقت بها . واحتملت الببغاء الخوخة وما لصق بها ، ومضت حتى وضعت ذلك في حجر الملك . وكان الملك طلعة ، فقرأ في هذه القطعة من اللويحة كلمات لاتدل على شيء ولكنها تشبه أن تكون قوافي لبعض الشعر ، وكان يحب الشعر . وللملوك الذين يحبون الشعر حظ من سعة الحيلة ، فدعته مغامرة ببغائه إلى التفكير . وكانت الملكة تذكر ما كتب على القطعة التي حملها حاسد زديج فأمرت باحضارها . فعورضت القطعتان ، وتبين أنهما تتفتان اتفاقاً تاماً ، وهناك قرئت الأبيات كما كتبها زديج ، فاذا هي كما يأتي :

لقد رأيت الأرض تملؤها اضطراباً أعظم الجرائم  
وقد ثبت الملك على العرش قادراً على ضبط كل شيء  
وإذا وسعت السلم كافة الناس فالحب وحده هو الذي يثير الحرب  
وهو العدو الوحيد الذي يجب أن يخاف .

وما هي إلا أن يأمر الملك باحضار زديج ليمثل بين يديه ، وبأن يخرج من السجن صاحبه والسيدة الجميلة . فلما مثل زديج بين يدي الملك والملكة قبل الأرض بين أيديهما ، وتوسل إليهما أن يغفرا له هذه الأبيات الرديئة التي اقترفها ، وقد تحدث في ظرف ولباقة وذكاء ، فرغب الملك والملكة في أن يرياه . وقد عاد فازداد إعجابهما به ، وقد أهديت إليه ثروة الحسود الذي كاد له بغير الحق . ولكن زديج رد هذه الثروة إلى الحسود الذي لم يتأثر إلا بأن ثروته قد ردت إليه . وقد جعل رضا الملك عن زديج يزداد من يوم إلى يوم ؛ فكان يحضره كل لذاته ويشاوره في كل أعماله . وجعلت الملكة منذ ذلك الوقت تنظر إليه في شيء من العطف كان خليقاً أن يصبح خطراً عليها وعلى زوجها الملك العظيم وعلى زديج وعلى الدولة كلها . وجعل زديج يظن أن ليس من العسير أن يكون الانسان سعيداً .

## الفصل الخامس

### الكريم

وقد أقبل العيد الذى كان يقام فى بابل كل خمسة أعوام . وكانت العادة قد جرت بأن يعلن فى بابل كل خمس سنين اسم الرجل الذى أقى عملاً يدل على الكرم والفضل . وكان العظماء والكهان هم القضاة . وكان محافظ المدينة يعرض أمام القضاة أحسن ما أبلى الناس من بلاء أثناء ولايته للحكم . ثم يتداول القضاة وينطق الملك بالحكم . وكان الناس يأتون إلى هذا الحفل من أقصى الأرض . وكان الفائز يتلقى من يد الملك كأساً من الذهب الخالص مرصعة بنفيس الجواهر ، ويسمع من الملك هذه الكلمات : « تقبل جائزة الكرم هذه وليكثر الله بين رعيتى من أمثالك » .

فلما كان يوم العيد ظهر الملك على عرشه يحف به وجوه الدولة وكهانا ونواب الأقاليم الذين أقبلوا يشهدون هذا اليوم الذى لا يكتسب فيه المجديسباق الخيل ولا باصطراع المصطربين ، وإنما يكتسب بالاستباق إلى الفضيلة والتنافس فى الخير . وقد عرض محافظ المدينة بصوت جهورى الأعمال النبيلة التى تؤهل أصحابها لهذه الجائزة السامية . فلم يذكر كبر النفس الذى أتاح لزديج أن يرد على الحسود ثروته ، فلم يكن هذا العمل من الأعمال التى تمهى أصحابها للاشتراك فى هذه السابقة . وإنما قدم أول الأمر اسم قاض دفع فى بعض القضايا إلى خطأ لم يكن مسئولاً عنه ، فنزل عن ثروته كلها للخصم الذى خسر قضيته بهذا الخطأ ، وكانت ثروة القاضى تعدل ما خسر الخصم .

ثم قدم بعد ذلك اسم قتي كان يحب فتاة أشد الحب ، ويريد أن يتخذها له زوجاً ، ولكنه علم أن لها محباً يكاد يهلكه الحب فنزل له عنها . ثم لم يكتف بهذه الكرامة وإنما أدى المهر من ماله الخاص . ثم قدم بعد ذلك اسم جندي أبلى فى حرب هيركانيا بلاء حسناً يتضاءل بالقياس إليه بلاء سابقيه ؛ فقد اختطف جنديان من جيش العدو خليلته وكان

يدافع عنها ليستردها منها ، وإذا النبأ يصل إليه بأن جنوداً آخرين من جيش العدو يريدون أن يختطفوا أمه غير بعيد منه ، فترك خليلته باكياً وأسرع فاستنقذ أمه ، ثم عاد إلى خليلته فوجدها تحتضر . فهم أن يقتل نفسه حزناً ، ولكن أمه بينت له أنه وحيدها وليس لها عائل غيره ، فكان له من الشجاعة ما أعانه على احتمال الحياة في سبيل أمه .

وكان القضاة يميلون إلى هذا الجندي . ولكن الملك قال : « إن بلاءه وبلاء من سبقه حسن ، ولكنه لا يدهشني ، أما زديج فقد أبلى أمس بلاء راعني ؛ فقد غضبت منذ أيام على وزيرى وعلى أثيرى كوريب ، وكنت ألومه في عنف شديد ، وكانت الحاشية كلها تؤكد لى أنى كنت به رقيقاً ، وكانوا جميعاً يستبقون أيهم يكون أشد إساءة في القول إلى كوريب . فسألت زديج عن رأيه فيه ، فإذا هو يجترئ فيثني عليه . وأعترف أنى قرأت في تاريخنا أن الناس كثيراً ما أصلحوا خطأهم بانفاق أموالهم كلها ، وأنهم كثيراً ما نزلوا عن خليلاتهم وآثروا أمهاتهم على عشيقاتهم ، ولكنى لم أقرأ قط أن رجلاً من أهل القصر استطاع أن يثني على وزير مقال قد غضب عليه ملكه غضباً شديداً ، وإنى أمنح كل واحد من هؤلاء الأبطال عشرين ألف دينار ذهباً خالصاً ، ولكنى أخص بالكأس زديج . »

قال زديج :

— مولاي ! إن جلالتك وحدها هي التي تستحق الجائزة ؛ لأنها أتت عملاً لا نظير له في الروعة ، فأنت يا مولاي ملك ، وأنت مع ذلك لم تغضب على عبدك حين اجتراً على أن يعارضك وأنت مغيب .

وقد أعجب الناس بالملك وبزديج . وتلقى القاضي الذي نزل عن ثروته ، والعاشق الذي زوج خليلته من صديقه ، والجندي الذي آثر سلامة أمه على عشيقته هدايا الملك ، ورأوا أسماءهم تسجل في سجل الكرماء ، وتلقى زديج الكأس . واشتهر الملك بأنه ملك عظيم خير ، ولكنه لم يحتفظ بهذه الشهرة وقتاً طويلاً . واختص هذا اليوم بأعياد أطول مما قرر القانون . وما زال الناس يذكرون هذه الأعياد في آسيا إلى الآن . وكان زديج يقول : « إنى إذن لسعيد . » ولكنه كان مخطئاً .

## الفصل السادس

### الوزير

وقد فقد الملك وزيره الأكبر ، فاختار زديج ليشغل هذا المنصب ، وصفت لهذا الاختيار حسان بابل جميعاً . فلم تعرف الدولة منذ إنشائها وزيراً له هذا الشباب . وحزن رجال القصر جميعاً حتى انتهى الأمر بالحسود إلى السل الذي انتهى به إلى أن يبصق دماً ، وورم أنفه ورمماً مروعاً . أما زديج فقد رفع شكره إلى الملك والملكة ثم ذهب ليهدي شكره إلى البيغاء قائلاً لها : « أيها الطائر الجميل ! لقد أبقذت حياتي وجعلتني وزيراً أكبر . ما أكثر ما أساءت إلى كلبة الملكة وجواد الملك ، وما أكثر ما قدمت إلى أنت من الاحسان ! وكذلك يتعلق مصير الناس بأوهى الأسباب . » ثم أضاف إلى ذلك قوله : « ولكن هذه السعادة الغربية خليقة أن يكون أمدّها قصيراً . » قالت البيغاء : « نعم ! » فوجم زديج لهذا الجواب ، ولكنه على ذلك كان عالماً بطباع الأشياء والأحياء ، وكان يعرف أن البيغاء لم تطلع قط على علم الغيب ، فلم يلبث أن عاد إلى الثقة والاطمئنان ، ونهض بأعباء الوزارة على أحسن وجه ممكن .

فأشعر الناس جميعاً بما للقوانين من سلطان مقدس ، ولم يشعر أحداً ما بثقل كبريائه الخاصة ، ولم يفرض رأيه على الديوان ، وإنما كان لكل وزير أن يجهر برأيه دون أن يسوّه أو يتعرض لسخطه . وكان إذا جلس للقضاء لم يقض هو ، وإنما كان يترك القضاء للقانون ، ولكنه كان يلطف القانون إن أنس فيه قسوة أو غلواً في العنف . وكان إذا حدثت واقعة لم يعرض لها القانون قضى فيها بالعدل حتى كأنه زرادشت .

فمنه تعلمت الأم هذا البدأ الخطير ، وهو أن إنقاذ المجرم خير من الحكم على البريء . وكان يعتقد أن القوانين شرعت لإغاثة المواطنين كما شرعت لإخافتهم . وكان يمتاز بالحرص على إظهار الحقيقة التي يحرص الناس كلهم على إخفائها .

ولم يكده ينهض بأعباء الحكم حتى انتفع فيه بذلك كله . وكان تاجر كبير من تجار بابل قد قضى نجه في الهند ، وكان قد قسم ثروته بين ابنيه قسمة عدلا ، على أن يزوجا أختهما ، ثم ترك ثلاثين ألف دينار ذهباً على أن تكون منحة لأى ابنيه يظهر أنه أشد حبا لأبيه . فأما الابن الأكبر فاتخذ لأبيه قبراً ؛ وأما ابنه الأصغر فزاد من نصيبه في الميراث مهر أخته ، وكان الناس يقولون : « إن الابن الأكبر مؤثر أباه على حين أن الابن الأصغر يؤثر أخته ، فللابن الأكبر يجب أن تؤول هذه الثلاثون ألفاً من الدنانير . »

أما زديج فدعاهما إلى الثول بين يديه واحداً في إثر صاحبه . وقال للأكبر : « إن أباك لم يمت ، وإنما برى من علة الأخرى وعاد إلى بابل . » قال الفتى : « الحمد لله ولكن هذا القبر قد كلفني كثيراً من المال ! » قال زديج للابن الأصغر ما قاله لأخيه فقال : « الحمد لله لأردن إلى أبى نصيبى من الميراث ، ولكنى أود لو ترك لأختى ما قدمت إليها منه . » قال زديج : « لن ترد شيئاً وستساق إليك الثلاثون ألفاً من الدنانير ، فأنت الذى تؤثر أباك بالحب . » وكانت فتاة عظيمة الثراء قد وعدت كاهنين بالزواج ، وبعد أن تثقفت أشهراً على الكاهنين أصبحت حاملاً ذات يوم . وكان كلا الكاهنين يريد أن يتخذها لنفسه زوجاً . أما هى فأعلنت أنها لن تختار منهما إلا الذى أتاح لها أن تمنح الدولة مواطناً جديداً . قال أحدهما : « فأنا الذى أتاح لها هذا المواطن . » قال الآخر : « بل أنا الذى أتيت له هذه المزية . » قالت الفتاة : « فانى أختار منكما أيكما يكون أقدر على أن يربى الطفل تربية ممتازة . » وقد ولدت غلاماً وتنافس الكاهنان في تربيته . وقد رفعت القضية إلى زديج ، فدعا الكاهنين وقال لأولهما : « ماذا تريد أن تعلم الصبي ؟ » قال الكاهن : « سأعلمه الخطابة والمنطق والفلك وخصائص الشياطين ، وسأعلمه حقيقة الجوهر والعرض والمجرد والمركب ، والوحدات التى يتألف منها الكون والنظام الذى سبق به القضاء . » وقال الكاهن الآخر : « سأحاول أن أجعله عدلاً خليفاً بأن يكون له أصدقاء . » قال له زديج : « لتكن أباه أو لاتكن ، فأنت الذى سيتزوج أمه . » وكانت الشكوى ترتفع إلى القصر فى كل يوم من حاكم ميديا ، وكان يسمى ايراكس ؛ فقد كان سيداً عظيماً كريم الطبع قد أسفده الغرور وحب اللذة ، وكان لا يكاد يحتمل أن يتحدث إليه الناس ولا يسمح بأن يخالفه

مخالف . ولم يكن الطاووس أشد منه غروراً ، ولم يكن الحمام أشد منه إشاراً للذة ، ولم تكن السلحفاة أشد منه حباً للكسل . ولم يكن ينعم إلا بالمجد الباطل واللذة الكاذبة . وقد حاول زديج إصلاحه . فأرسل إليه من قبل الملك مومسيتياً بارعاً يصحبه اثنا عشر من المغنين وأربعة وعشرون من الموقعين ، وأرسل إليه مع هؤلاء قوماً على الخدمة ومعه ستة من السعاة وأربعة من الحجاب لم يكن يباح لهم أن يتركوه ؛ وصدر أمر الملك باتباع النظام الآتى دون مخالفة عنه أو خروج عليه . وإليك كيف نفذ هذا النظام . لم يكد إيراكس يفيق من نومه فى اليوم الأول حتى دخل عليه أستاذ الموسيقى ومعه المغنون والموقعون ، فغنوا له أغنية استمرت ساعتين ، وكان يتردد فيها كل ثلاث دقائق هذا الكلام :

ما أحسن بلاءه

ما أجمله ! ما أعظم خطره !

ما أجدر مولانا

بأن يرضى عن نفسه !

فلما فرغ المغنون تقدم أحد الحجاب فألقى بين يديه خطبة استمرت ثلاثة أرباع الساعة لم تشتمل إلا على الشناء عليه بما ليس فيه . فلما انتهت الخطبة قيد إلى المائدة على نغم الموسيقى وقد اتصل الغداء ثلاث ساعات لم يكن يهم فيها بالكلام حتى يقول الحاجب الأول : « لن يقول إلا صواباً . » ولا يكاد ينطق بكلمات أربع حتى يقول الحاجب الثانى : « لقد أصاب . » ويضحك الحاجبان الآخران مما قال أو مما كان يمكن أن يقول . فاذا فرغ من غدائه أعيدت عليه الأغنية .

وفد وجد فى يومه الأول لذة أى لذة ، واعتقد أن الملك إنما أراد أن يعطيه حقه من التكريم ، فلما كان اليوم الثانى وجد فيه من اللذة أقل مما وجد فى اليوم الأول . فلما كان اليوم الثالث ضاق به شيئاً . فلما كان اليوم الرابع لم يستطع له احتمالاً . فلما كان اليوم الخامس وجد فيه عذاباً شديداً . ثم ضاق آخر الأمر بكثرة ما كان يقال له من أنه خليف أن يرضى عن نفسه ، وبكثرة ما كان يقال له لقد أصاب ، وبكثرة ما كان يلقى بين يديه من الخطب

في ساعة معينة من كل يوم . فكتب إلى القصر يتوسل إلى الملك في أن يتفضل  
فسترد حيايه ومغنيه وخدامه ، ويعد بأنه سيحرص على أن يكون في مستقبل  
أيامه قليل الغرور كثير النشاط ، ثم أعرض عن الشناء الباطل واللذة الكاذبة  
وأصبح سعيداً . « فان اللذة المتصلة ليست من اللذة في شيء » ، كما يقول  
الكتاب المقدس للبراهمة .

### الفصل السابع

## الاستقبالات والخصومات

وكذلك كان زديج يظهر في كل يوم دقة ذكائه وكرم نفسه . وكان  
الناس يعجبون به ، وكانوا مع ذلك يحبونه ، ويرون أنه أسعد الناس ، وكان  
اسمه يملأ الدولة كلها ، وكان النساء جميعاً ينظرن إليه ، وكان المواطنون  
جميعاً يثنون على عدله ، وكان العلماء يرون أن مكانه منهم مكان الوحي ، وكان  
الكهنة أنفسهم يعترفون بأنه يحيط من العلم بأكثر مما يحيط به عظيمهم الشيخ  
يبيور . وكان العهد بعيداً بقضية العنقاء . ولم يكن الناس يقبلون إلا ما كان  
زديج يرى أنه خليق بالقبول .

وكانت في بابل خصومة عظيمة قديمة قد اتصلت منذ خمسة عشر قرناً ،  
وانقسمت لها الدولة إلى فريقين متعادين . أحدهما كان يرى ألا يجوز أن  
يتخطى الداخل عتبة المعبد لترا إلا بقدمه اليسرى ، والآخر كان يمتق هذه  
العادة أشد المقت ، ولا يدخل المعبد إلا برجله اليمنى . وجعل الناس ينتظرون  
يوم العيد الأكبر للنار المقدسة ليزوا أي المذهبين يؤثر زديج . وكانت أعين  
العالم كله تتجه إلى رجليه ، وكانت المدينة كلها مضطربة قلقة . ولكن زديج  
دخل المعبد وثباً فلم يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ثم بين للناس في خطبة رائعة  
أن إله السماء والأرض الذي لا يختص أحداً بفضله لا يؤثر قدماً على قدم سواء  
أكانت اليمنى أو اليسرى .

وقد زعم الحسود وامرأته أن خطبته لم تشتمل على مقدار ملائم من المجاز

وأنه لم يرقص فيها التلال والجبال . وكنا يقولان إن خطبته جافة لا براعة فيها ، فليس يرى فيها البحر هارباً ولا النجوم متساقطة ولا الشمس ذائبة كما يذوب الشمع ، فليس له الأسلوب الشرقى الجميل . أما زديج فكان يكتفيه أن يكون أسلوبه ملائماً لعقله . وقد سار الناس كلهم على أثره ، لا لأنه كان على الصراط المستقيم ، ولا لأنه كان حريصاً على موافقة العقل ، بل لأنه كان الوزير الأول . وهو كذلك قد قضى قضاء حسناً بين الكهنة البيض والكهنة السود . وكان البيض يزعمون أن من الائم أن يتجه الناس إلى المشرق إذا صلوا في الشتاء ، وكان السود يؤكدون أن الله يكره الذين يصلون إلى المغرب في الصيف ، فأمر زديج أن يولى الناس وجوههم في الصلاة حيث يشاءون . وقد نظم وقته ، فكان يصرف الأعمال الخاصة والعامة في الصباح ، وينفق بقية اليوم في تجميل بابل . وكان يأمر بتمثيل المساة التي تبكى والمهابة التي تضحك . وقد أحيا هذه العادة بعد أن ماتت لأنه كان عظيم الحظ من الذوق . ولم يكن يزعم أنه يعرف الفن خيراً من أهله ، وإنما كان يكافئ أصحاب الفن بالمال وأنواع التمييز ولا يخفى الغيرة من تفوقهم . فاذا كان المساء فرغ لتسلية الملك والملكة خاصة . وكان الملك يسميه الوزير الأكبر ، وكانت الملكة تسميه الوزير الطريف ، وكنا يضيفان كلاهما أن الدولة كانت تتعرض بفقدته لشر عظيم . ولم يتح لوزير قط أن يستقبل السيدات بمقدار ما كان يستقبلهن . وكان أكثر من يسعين إليه يعرض عليه أموراً لا تعين ليحدثن بينهن وبينه أموراً ذات بال . وكانت زوج الحسود منهن في الطليعة ، وقد أقسمت له بمترا وبالزند أفستا وبالنار المقدسة ، أنها كرهت سيرة زوجها معه ، ثم أسرت إليه بعد ذلك أن هذا الزوج غيور عنيف ، ثم لحت له بأن الآلهة يعاقبونه على ذلك فيحرمونه الاستمتاع بهذه النار المقدسة التي ترفع الناس إلى مكان الخالدين . ثم أسقطت رباط جوربها وقد التقطه زديج في أدبه المألوف ، ولكنه لم يرده إلى موضعه من ساق السيدة . وكانت هذه الغلطة — إن صح أن تكون غلطة — مصدراً لخطوب منكرة شداد . لم يفكر زديج في هذه الغلطة ، ولكن امرأة الحسود أطالت فيها التفكير .

وجعلت سيدات آخر يزرنه في كل يوم . وقد سجل التاريخ السرى لمدينة بابل أنه هفا هفوة واحدة ، ولكنه دهش أشد الدهش لأنه لم يجد في هذه

المهفة لذة ، ولأنه كان يقبل خليلته لاهياً عنها . وكانت المرأة التي ميزها بهفوته هذه وهو لا يكاد يلتفت إليها وصيفة من وصائف الملكة استارتيه . وكانت هذه البابلية الرقيقة تقول لنفسها ملتزمة العزاء : « يجب أن يكون هذا الرجل كثير المموم إلى حد أنه يفكر في همومه أثناء الحب . » وقد أفلتت من زديج في الساعة التي لا يقول الناس فيها شيئاً أو لا يقولون فيها إلا ألفاظاً مأثورة كلمة نطق بها عن غير وعى ، وهى : « الملكة » . فظنت البابلية أنه قد ثاب إلى نفسه آخر الأمر ، وأنه يدعوها ملكته . ولكن زديج مضى في ذهوله حتى نطق باسم الملكة استارتيه . وخيل إلى السيدة في هذه اللحظة السعيدة أنه كان يقول لها إنها أجمل من الملكة استارتيه . وقد خرجت من قصر زديج ومعها طرف كثيرة . فما هى إلا أن تزور زوج الحسود وكانت لها صديقاً حميماً ، فتقص عليها مغامرتها تلك . وتغار هذه لأن زديج آثر عليها صاحبها . قالت : « إنه لم يتنزل حتى إلى أن يضع لى رباط الجورب هذا في موضعه ، ولقد كرهت هذا الرباط منذ ذلك اليوم . » قالت السيدة السعيدة للسيدة الحسود : « إنك لتتخذين لجواربك نفس الرباط الذى تتخذه الملكة . لعلكما تشتريانه من صانعة واحدة . » ففكرت زوج الحسود طويلاً ولم تقل شيئاً ، ثم أظهرت زوجها الحسود على القصة كلها .

وكان زديج فى أثناء ذلك يلاحظ أن شيئاً من الذهول يصيبه حين يقضى وحين يستقبل ، ولم يكن يعرف كيف يعمل هذا الذهول . وقد رأى فيما يرى النائم كأنه كان مستلقياً على عشب جاف فيه شوكات تؤذيه . ثم كأنه بعد ذلك قد كان نائماً على سرير من الورد ، فخرج منه ثعبان لدغ موضع القلب منه بلسانه الدقيق الحاد المسموم . وكان يقول لنفسه : « واحسرتاه ! لقد تمت طويلاً على العشب الشائك ، ثم هأنذا الآن أنام على سرير من الورد ، فما عسى أن يكون هذا الثعبان ؟ »

## الفصل الثامن

### الغيرة

وقد جاء شقاء زديج من سعادته نفسها ومن كفايته بنوع خاص . فقد كان يخلو في كل يوم إلى الملك فيتحدث إليه وإلى زوجته الجليلة أستارتيه . وكان سحر حديثه يزداد لحرصه على أن يشير الإعجاب . ومكان هذا الحرص من النفوس مكان الزينة من الأجسام . وقد أثر شبابه وظرفه في نفس استارتيه تأثيراً لم تقطن له أول الأمر ، فجعل حبها ينمو في ظل البراءة . وكانت استارتيه تستمتع غير متحفظة بالنظر والاستماع إلى قتي عزيز على زوجها الملك وأثير عند الدولة كلها . ولم تكن تكف عن الشاء عليه عند الملك والتحدث عنه إلى وصائفها اللاتي كن يصفن إطرأ إلى إطرأ . وكان كل شيء يعين على أن ينفذ في قلبها ذلك السهم الذي لم تكن تشعر به . وكانت تهدي إلى زديج من الهدايا ما يدل على الميل أكثر مما كانت تقدر ، وكانت تظن أنها إنما تتحدث إليه كما تتحدث الملكة إلى وزير قد رضيت عن عمله ، على حين أنها إنما كانت تتحدث إليه حديث امرأة رقيقة مرهفة الحس . وكانت أستارتيه أروع جلالاً وأبرع حسناً من سمير تلك التي كانت تكره العور ومن تلك المرأة التي كادت تجدد أنف زوجها . وما هي إلا أن يشير تبسط أستارتيه مع زديج ، وحديثها الرقيق الذي أخذ يسبغ على وجهها شيئاً من حمرة ، ولحظها الذي كانت تريد أن تحوله ولكنه كان يستقر على لحظه هو فيذكر في قلبه ناراً دهش لها دهشاً شديداً . وقد قاوم ، واستعان بالفلسفة التي كانت تعينه كل ما التمس عندها العون ، ولكنها في هذه المرة لم تمده إلا بنور المعرفة دون أن تخفف من وجده شيئاً . وكان الواجب وعرفان الجميل وجلال الملك ، كل أولئك يمثل له كأنه آلهة الانتقام . كان يقاوم وكان ينتصر . ولكن هذا الانتصار الذي كان يجب أن يظفر به كل ساعة كان يكلفه كثيراً من

من الأنين والدموع . وقد أصبح لا يجرؤ على أن يتحدث إلى الملكة في تلك الحرية الحلوة التي كانت تسحرهما جميعاً . وكان إذا لقي الملكة غشيت عينيه سحابة وتقطع حديثه واختلط ، فكان يغض بصره ، فإذا تحول لحظه على رغبته نحو الملكة رأى عينها يبللها الدمع وتنطلق منهما في الوقت نفسه سهام من نار ، وكأنما كان كل منهما يقول لصاحبه : « إن الحب يشغفنا ولكننا نخاف الحب ، وإن ناراً واحدة تحرقنا ولكننا نبغض هذه النار . »

وكان زديج يخرج من عندها هائماً واجاً قد أثقل قلبه عبء لا قبل له باحتماله . وقد تجاوز الهيام به حده ، فأظهر صديقه كادور على مكثون سره ، وكان يشبه في ذلك رجلاً شق عليه الألم حتى أضناه فانتزع منه صيحة شاكية وأسأل على جبهته عرقاً بارداً ، فظهر من أمره ما كان مستوراً .

قال كادور : « لقد تبينت هذا الشعور الذي كنت تريد أن تخفيه حتى على نفسك ؛ فان للعواطف الجامعة آيات ليس إلى الشك فيها سبيل . فقدّر أيها الصديق العزيز ، وقد استطعت أنا أن أقرأ في قلبك ، كيف تكون حال الملك لو قرأ في هذا القلب بعض ما يهينه ! فليس للملك عيب إلا أنه أشد الناس غيرة . إنك تقاوم حبك في قوة أشد مما تبذل الملكة لمقاومة حبا . ومصدر ذلك أنك فيلسوف ، وأنت زديج . أما استراتيجتي فامرأة ، وهي تبيح للحظها أن يتكلم في غير تحفظ ؛ لأنها مازالت تعتقد أنها غير آثمة . وهي مع الأسف قد اطمأنت إلى براءتها ، فيدعوها ذلك إلى الإهمال في التحفظ والاحتياط بالقياس إلى أشياء خارجية لا ينبغي أن تهمل ، وسأظل مشفقاً عليها ما لم تقترب شيئاً تلوم نفسها فيه . ولو قد اتفقتا لهان عليكما خداع الرقباء . فالحب الناشئ المكبوت لابد من أن يفتضح ، أما الحب الذي ظفر بالرضا فهو قادر على أن يستخفى . » وقد اضطرب زديج لهذه الفكرة التي تغريه بخيانة الملك وهو الذي أحسن إليه ، ولم يبلغ من الوفاء للملكة قط مثل ما بلغ حين تبين أنه قد تورط في هذه الخطيئة عن غير إرادة منه . ومع ذلك فقد كانت الملكة تكثر من ذكر زديج ، وكانت الحمرة تغشى وجهها كلما ذكرته ، وكانت حين تتحدث إليه بمحضر الملك تتحمس حيناً وتقطع حيناً ، وكانت تغرق في التفكير العميق إذا خرج ، حتى أثار هذا كله شيئاً من الاضطراب في نفس الملك ، فصدق كل ما رأى وتخيّل كل ما لم ير ، ولاحظ بنوع خاص أن حذاء امرأته كان أزرق ،

وأن حذاء زديج كان أزرق ، وأن شرائط الملكة كانت صفراء ، وأن قلنسوة زديج كانت صفراء . وكانت هذه الأشياء كلها آيات خطيرة بالقياس إلى ملك مترف . وما هي إلا أن يتحول الشك إلى يقين في نفسه الساخطة .

وخدام الملوك والملكات جميعاً جواسيس على قلوبهم . فلما أسرع ماتيين هؤلاء الخدم أن استارتيه عاشقة ، وأن مؤبدار غيران . وأغرى الحسود امرأته بأن ترسل إلى الملك رباط جوربها الذي يشبه رباط جورب الملكة . وكان هذا الرباط ، لشقاء زديج ، أزرق ، فلم يفكر الملك بعد ذلك إلا في الانتقام . وأزعم في ذات ليلة أن يميت الملكة مسمومة ، وأن يميت زديج مشنوقاً . إذا أسفر الصبح . ثم صدر الأمر بذلك إلى خصي قاس من خصيانه موكل بانتقامه .

وكان في غرفة الملك حين أصدر هذا الأمر قَزِيمٌ أخرس ولكنه سميع ، وكان يخالط الملك ولا يخفي عليه من أمر القصر شيء كأنه بعض الحيوان المستأنس . وكان هذا الأخرس القزم وفيها للملكة ولزديج . فلما سمع الأمر بموتها أحس دهشاً لا بعدله إلا ما أحس من هول . ولكن كيف السبيل إلى اتقاء هذا الأمر الفظيع الذي يوشك أن ينفذ في ساعات قلائل ؟ لم يكن القزم يحسن الكتابة ، ولكنه كان يحسن التصوير ويحيد المقاربة بين الصورة والأصل . فأنفق شطراً من الليل في رسم ما كان يريد أن يؤدي إلى الملكة من المعنى . وكان رسمه يصور الملك مغيضاً مخفياً مصدرأ أمره إلى الخصي ، ومائدة غير بعيدة قد ألقى عليها حبل أزرق ورباط جورب أزرق وشريط أصفر وقام عليها إناء . والملكة في وسط اللوحة تحتضر بين أذرع وصائفها ، وزديج مخنوق تحت قدميها . وكان الأنف يصور طلوع الشمس ، ليدل بذلك على أن هذا الأمر المنكر سينفذ إذا أسفر الصبح . فلما أتم صورته أسرع إلى وصيفة من وصائف الملكة وأفهمها أن هذه الصورة يجب أن تصل إليها من الفور .

وفي أثناء الليل طرق باب زديج ثم أوقف ودفعت إليه رسالة من الملكة . فيشك في أنه حامل أو عالم ، ثم يفض الرسالة بيد مرتعشة . فأى دهش وأى حزن أصابه حين قرأ هذه الكلمات :

« النجاء في هذه اللحظة وإلا فقدت حياتك ! النجاء يا زديج إنى أمرك بذلك وأستحلفك بحبنا وبشرائطى الصفر . لم أكن آثمة ولكنى أشعر بأنى سأموت مجرمة . »

ولم يكد زديج يجد القوة على الكلام ، فأمر بدعاء كادور . ولم يقل له شيئاً ، وإنما دفع إليه الرسالة . فأكرهه كادور على الطاعة ، على أن يأخذ من فوره الطريق إلى ممفيس . قال له : « إن حاولت لقاء الملكة عجلت موتها ، فاذا تحدثت إلى الملك عجلت موتها كذلك . فعلى أن أدبر أمرها ، فدبر أنت أمرك . وسأدعي أنك سلكت طريقك إلى الهند . وسألحق بك بعد قليل وأنبئك بما يكون قد حدث في بابل من الخطوب . »

وفي الوقت نفسه أمر كادور بإعداد نجيين خفيفين سريعين أمام باب خفي من أبواب القصر ، وحمل على أحدهما زديج حملاً ، فلم يكن يستطيع أن يسعى ، وإنما كان يوشك أن يموت حزناً ، وصحبه خادم واحد . وما هي إلا ساعة حتى كان كادور غارقاً في حزن عميق وقد غاب صديقه من بصره . ومضى هذا الهارب العظيم ، حتى إذا بلغ تلا مشرفاً على بابل التفت إلى قصر الملكة ثم أغشى عليه ، ولم يفق من إغائه إلا ليسفح الدمع ويتمنى الموت . فلما قضى حق الملكة التي هي أحب النساء إلى القلوب وأبعد الملكات صوتاً في الآفاق ، وفكر فيما قضى عليها من شقاء ، عاد إلى نفسه وفكر في أمره ، ثم صاح قائلاً : « ما حياة الناس إذن ؟ أيها الفضيلة بماذا نفعتني ؟ لقد خانتني امرأتان وهذه الثالثة لم تقترف إثماً وقد قضى عليها الموت . كل ما في من خير كان مصدر شقاء لي . ولم أرتفع إلى أرق المراتب إلا لأهوى إلى الدرك الأسفل من الشقاء . ولو قد كنت شريراً فكثير من الناس لظفرت بما يظفرون به من السعادة . » ومضى في طريقه إلى مصر تثقله هذه الخواطر المهلكة ، ويغشى عينيه سحاب الألم ، وتعلو وجهه صفرة الموت ، وقد هوت نفسه من أعماق اليأس إلى قرار سحيق .

## الفصل التاسع

### المرأة المضروبة

مضى زديج يهتدى بالنجم في طريقه ، وكانت الجوزاء والشعري تقودانه نحو كانوب ، وهو يعجب بهذه الكرات الضخمة من الضوء التي لا تظهر لأعيننا إلا كستصغر الشرر ، على حين تظهر الأرض لمطامعنا شيئاً عظيماً جليل الخطر ، مع أنها ليست في حقيقة الأمر إلا نقطة ضئيلة في الكون . وكان يرى الناس كما هم في الواقع جاعات من الحشرات يأكل بعضها بعضاً على ذرة ضئيلة من الطين . وهذه الصورة الصادقة كانت تلغى شقاءه إنغاء ؛ لأنها تضائل من شخصه ومن مبرينة بابل نفسها . وكانت نفسه تتجرد من شخصيته وتشب نحو آفاق اللانهاية ، وتلاحظ هذا النظام المستقر الذي يمشى عليه الكون . ولكنه حين كان يثوب إلى نفسه ويتعمق دخيلة قلبه لم يكن يستطيع إلا أن يفكر في أن استارتيه قد تعرضت لأعظم الخطر ، ولعلها قد لقيت الموت . هنالك كان العالم كله يستخفى ، ولم يكن هو يرى إلا استارتيه تحتضر وزديج ينبرجع كأس الشقاء !

وبينما كان يتردد بين هذا المد والجزر من فلسفة رفيعة إلى ألم ممض جعل يتقدم نحو حدود مصر . وكان خادمه الأمين قد سبقه إلى إحدى الضواحي ليلتمس له منزلاً . وجعل زديج يتنزه في الحدائق التي تحيط بهذه الضاحية ، فرأى غير بعيد من الطريق العامة امرأة موهلة تستغيث بالأرض والسماء ، ورجلاً يتبعها وقد أخرجه الغضب عن طوره . وقد لحقها الرجل وهي تستعطفه لاثمة ركبتيه ، والرجل يشبعها شتاً وضرباً . فقدر زديج لمنظر هذين الصريين أن الرجل كان غيوراً وأن المرأة كانت خائنة . ولكنه حين نظر إلى هذه المرأة ورأى ذات جال مؤثر وفيها ملامح من استارتيه رق لها وسخط على الرجل أما هي فأعولت والعبرات تحنقها قائلة لزديج : « أعنى أقذني

من هذا الرجل الذى ليس له نظير في الغلظة والجفاء . أنقذ حياتى . «  
 هنالك أسرع زديج فألقى بنفسه بينهما ليرد عنها عنف هذا الرجل . وكان  
 له شئ من العلم بلغة المصريين ، فقال له في هذه اللغة : « إن كان لك حظ  
 من رحمة فانى أتوسل إليك أن تحترم الجبال وترفق بالضعف . أتستطيع أن  
 تبين إلى هذا الحد آية من آيات الطبيعة قد جثت أمامك وليس لها عاصم منك  
 إلا الدموع ؟ » قال الرجل العنيف . « فأنت تحبها أيضاً ! ومن حق أن أنتقم  
 منك . » ثم أرسل شعر المرأة الذى كان يجذبه وصوب إلى الغريب رحمه يريد  
 أن يشق به صدره . وكان زديج محتفظاً بهدوئه ، فاستطاع أن ينحرف عن  
 الطعنة في يسر . وأخذ بسنان الرمح يجذبه إليه ، والمصرى يريد أن يحتفظ به ،  
 فيتحطم الرمح بين الرجلين . ويسل المصرى سيفه فيسل زديج سيفه ، ويسعى  
 كلاهما إلى صاحبه . فأما المصرى فيرسل ضرباته في غير نظام ، وأما خصمه  
 فيتيقها في مهارة . والمرأة جالسة على العشب تصفف شعرها وتنظر إليهما .  
 وكان المصرى أقوى من خصمه ، وكان زديج أمهر من المصرى : أحدهما يقاتل  
 ورأسه يدير ذراعه ، والآخر يقاتل وقد ملك الغضب عليه أمره كله . ثم يهجم  
 عليه زديج فيجرده من سلاحه . ولكن المصرى يبلغ من الغضب أقصاه  
 فيهجم على زديج الذى يأخذه فيضغطه فيلقيه على الأرض فيضع ذباب السيف  
 على صدره ويعرض عليه الحياة . هنالك يفقد المصرى صوابه ، فيستل خنجر  
 ويحرج به زديج في نفس الوقت الذى كان يهدى إليه العفو فيه . وقد ثارت  
 حفيظة زديج فأغمد سيفه في صدر خصمه . ويدفع المصرى صيحة هائلة ثم  
 يلفظ الروح .

ثم يتقدم زديج في خضوع إلى هذه المرأة قائلاً لها في صوت هادئ :  
 « لقد أكرهنى على أن أقتله . فأنت الآن صرت طليقة قد أمنت شر هذا الرجل  
 الذى لم أر مشبهاً له في العنف . فإذا تريدنى منى الآن يا سيدتى ؟ » قالت  
 المرأة : « أريد أن تموت أيها المجرم . أريد أن تموت ! لقد قتلت حبيبى ! وددت  
 لو أمزق قلبك تمزيقاً » . قال زديج : « إن لك في الحق لزاجاً غريباً يا سيدتى !  
 لقد كان يضربك ضرباً مبرحاً ، ولقد كاد يسلبنى حياتى لأنك طلبت إلى النجدة  
 فاستجبت لك . » قالت معولة : « وددت لو يضربنى الآن ضرباً مبرحاً ! لقد  
 كنت أهلاً لا كنت ألقى منه ، لقد دفعته إلى الغيرة . وددت لو يضربنى الآن

وأنتك ملقى مكانه.» قال زديج وقد أخذ منه الدهش والغضب مأخذاً عظيماً: «سيدتى إنك لرائعة الحسن، ولكنك أهل لأن أضربك أنا أيضاً لأنك شاذة الأخلاق، ولكنى لن أكلف نفسى هذا الجهد.» ثم جلس على جملة وسعى نحو الضاحية. ولكنه لا يكاد يمضى إلا قليلاً ثم يسمع نبأة، فيلتفت وإذا سعاة أربعة من أهل بابل قد أقبلوا مسرعين. فيرى أحدهم هذه المرأة ويصيح: «هذه هى إنها لتشبه الصورة التى وصفت لنا.» ثم لا يلتفتون إلى الميت وإنما يحيطون بالسيدة فيخطفونها خطفاً. وهى تصيح: «أنقذنى مرة أخرى أيها الغريب! إنى لنأدمة على الاساءة إليك. أنقذنى، إنى لأعذر إليك بأنى شكوت منك! أنقذنى وأنا لك إلى أن أموت.» ولكن زديج كان قد فقد الليل إلى أن يقاتل فى سبيلها، فأجابها: «أطلبى المعونة من غيرى فلن تحددعنى مرة أخرى.»

على أنه كان جريحاً وكان دمه ينزف وكان محتاجاً إلى بعض العناية، وقد ملأه منظر هؤلاء البابليين الأربعة قلقاً، فهم رسل الملك مؤبدار. فيسرع نحو القرية، غير متخيل للسبب الذى من أجله يختطف البابليون هذه المرأة، وغير فاهم لأخلاق هذه المرأة نفسها.

### الفصل العاشر

### الرق

ولا يكاد يدخل القرية المصرية حتى يرى الناس قد أحاطوا به، وهم يتصايحون: «هذا هو الذى اختطف ميسوف الحسنة وقتل، كليتوفيس.» قال زديج: «أيها السادة ليعصمنى الله إلى آخر الدهر من أن أختطف حسنة كم ميسوف، فانها جامحة مسرفة فى الجراح. أما كليتوفيس فانى لم أقتله عن عمد، وإنما دافعت عن نفسى حين اعتدى على. لقد كان أراد أن يقتلنى لأنى طلبت إليه فى أرقى الرفق أن يكف أذاه عن ميسوف وكان يضربها ضرباً

مبرحاً . وإنما أنا رجل غريب قد أقبل لاجئاً إلى مصر . وليس مما يلائم العقل أن أسعى إليكم مستجيراً بكم ثم أبدأ بخطف امرأة وقتل رجل . »

وكان المصريون في ذلك الوقت أولى عدل ورحمة . فقد قاد الشعب زديج إلى المركز ، وهناك ضمدت جراحه قبل كل شيء ، ثم حقق معه ومع خادمه كل على حدة لاستجلاء الحقيقة . فتبين أن زديج لم يتعمد القتل ولكنه قد أراق دم إنسان ، وكان القانون يقضى عليه بالرق . فبيع جملاه لمصلحة القرية ، وفرق ما كان يحمل من ذهب على أهلها ، وعرض هو وخادمه للبيع في سوق الرقيق . وقد تنافس فيهما المشترون وتمت الصفقة لتاجر عربي يسمى سيتوك . على أن ثمن الخادم قد كان أرق من ثمن سيده ؛ لأن الخادم أفدر على العمل وأجدر أن يحتمل من المشقة ما لم يكن سيده يقدر على احتماله . ولم ينظر إلى ما بين السيد وخادمه من تفاوت في العقل والمنزلة ، فأصبح زديج إذن عبداً خاضعاً لخادمه ، وقد قرن كلاهما إلى صاحبه في حبل واحد من رجليهما ثم دفعا إلى بيت سيدهما الجديد . وكان زديج في أثناء الطريق يعزى خادمه ويرغبه في الصبر ، ولكنه كان على عادته يفكر في حياة الإنسان ومصيره . وكان يقول لخادمه : « إن الشقاء الذي كتب عليّ يمتد إليك . فقد دارت الأشياء كلها بالقياس إلى دورة غريبة إلى الآن ؛ فقد قضى على بالغرامة لأنى رأيت كلبة تمر ، وأشرفت على الموت من أجل العنقاء ، وأرسلت إلى العذاب لأنى صنعت شعراً أنثيت فيه على الملك ، وكدت أشنق لأن شرائط الملكة كانت صفراء ، وهأنذا أدفع معك إلى الرق لأن رجلاً عنيماً ضرب خليلته . فلنحتفظ بشجاعتنا ؛ فقد يكون لألنا حد يقف عنده ، ولابد لهذا التاجر العربي من أن يملك الرقيق . ولم لا أكون أنا رقيقاً كغيري من الرقيق ، مادمت رجلاً كغيري من الرجال ؟ ولن يكون هذا التاجر قاسياً ؛ فقد ينبغي أن يرفق بعبده إن كان يريد أن ينال منهم خيراً . » كذلك كان يقول لخادمه على حين كان قلبه مشغولاً بمصير الملكة استارتيه .

وقد ارتحل سيتوك العربي بعد يومين مستصحبا خادميهِ وإبله إلى صحراء بلاد العرب ، وكانت قبيلته تسكن قريباً من صحراء أوربب . وكانت الطريق طويلة شاقة . وكان العربي أثناء السفر يؤثر الخادم على سيده ، لأن الخادم كان يحسن وضع الأثقال على ظهور الإبل ، فكان العربي يخضه بالعناية .

وقد نفق أحد الجبال على مسيرة يومين من أوريب ، فوزع حملة على الخدم وحمل زديج نصيبه . وكان سيتوك يضحك حين يرى عبيده جميعاً يمشون وقد انحنوا لثقل ما كانوا يحملون . وقد استباح زديج لنفسه أن يبين له سبب هذا الانحناء ، ففسر له قوانين التوازن . فدهش التاجر وجعل ينظر إليه نظراً جديداً . ولما رأى زديج اهتمامه بما سمع استحث حبه للاستطلاع ، فتحدث إليه في أشياء كثيرة كانت تتصل بتجارته ، كالثقل النوعي للأشياء التي تختلف مادة وتستوى حجماً ، وخصائص بعض الحيوان التي تنفع الناس ، وطرائق الانتفاع بما لا يظهر فيه نفع ، فتبين لسيتوك أن خادمه حكيم ، فأثرو وقدمه على خادمه الذي كان يفضلته عليه من قبل ، ثم أحسن معاملته . ولم يندم فيما بعد على ما قدم إليه من معروف .

ولم يكد سيتوك يصل إلى مضارب القبيلة حتى استقضى يهوديا خمس مئة مثقال من الفضة ، وهو دين كان اليهودي قد اقترضه منه أمام شاهدين ، ولكن الشاهدين كانا قد فارقا الحياة ، فالتوى اليهودي بالدين حامداً لله أن أتاح له هذه النعمة التي مكنته من أن يحدد دين رجل من العرب . فأفضى سيتوك بهمه هذا إلى زديج الذي كان قد أصبح له مستشاراً قال زديج : « في أى مكان أقرضت مثايلك لهذا الكافر ؟ » قال التاجر : « على صخرة ضخمة قريباً من جبل أوريب . » قال زديج : « وما أخص ما يمتاز به مدينك ؟ » أجاب سيتوك : « يمتاز بالغدر . » قال زديج : « ولكنى أسألك أنشط هو أم كسل ، أحذر هو أم أخرق . » قال سيتوك : « هو بين الذين يلتون بالدين أعظمهم حظاً من النشاط . » قال زديج : « أتأذن أن أكون محاميك أمام القضاة ؟ » ثم دعا اليهودي أمام المحكمة وتحدث إلى القضاة على هذا النحو : « يا وسائد العرش الذي يستقر عليه العدل إني أطلب إلى هذا الرجل نيابة عن سيدى خمس مئة مثقال من الفضة قد التوى بها وبأى أن يؤديها . » قال القاضي : « أعندك بينة ؟ » قال زديج : « لا ! لقد مات الشاهدان ، ولكن هناك صخرة عريضة عدت عليها الماثيل ، فإذا أذنت المحكمة بحمل هذه الصخرة فقد أرجو أن تشهد لى وسنقى نحن هنا حتى تحمل الصخرة . وسأرسل من يحملها على نفقة سيدى سيتوك . » قال القاضي : « لا بأس . » وجعل ينظر في قضايا أخرى :

فلما كان آخر الجلسة قال لزديج : « ألم تأت صخرتك بعد ؟ » فتضحك اليهودى قائلاً : « تستطيع عظمتكم أن تبقى في الجلسة إلى غد دون أن تحضر الصخرة ؛ فهي تقوم على بعد ستة أميال ، ولا يستطيع أن يحولها عن مكانها أقل من خمسة عشر رجلاً . » فصاح زديج : « ألم أقل لكم إن الصخرة ستشهد لى ؟ فإدام هذا الرجل يعرف مكانها فهو يقر بأن الشاقل قد عدت عليها . » فبهت اليهودى واضطر آخر الأمر إلى الاعتراف ، وأمر القاضى بأن يشد هذا الرجل إلى الصخرة ولا يقدم إليه طعام ولا شراب حتى يؤدي الدين . ومنذ ذلك الوقت أصبح العبد زديج والصخرة موضع ثقة وثناء في بلاد العرب .

### الفصل الحادى عشر

### التحريق

وبلغ الرضا من سيتوك أن جعل من عبده لنفسه خليلاً ، وأصبح لا يستطيع أن يستغنى عنه كما كان ذلك شأن الملك في بابل . وكان زديج سعيداً لأن سيده لم يتخذ لنفسه زوجاً . وكان يتبين في سيده طبعاً ميلاً إلى الخير وكثيراً من الاستقامة في السيرة والإصابة في التقدير . وساءه أن سيده كان يعبد جيش السماء أى الشمس والقمر والنجوم ، كما حرت بذلك عادة العرب . وكان يتحدث إليه في ذلك متحفظاً أشد التحفظ . ثم قال له آخر الأمر : « إن هذه الكواكب والنجوم ليست إلا أجساماً كغيرها من الأجسام ، وليست أحق بالعظيم من شجرة أو صخرة . » قال سيتوك : « إنها كائنات خالدة تحقق لنا منافعنا كلها ؛ فهي تشيع الحياة في الطبيعة وتدبر فصول العام ، وهى بعد ذلك بعيدة عنا بحيث لا نستطيع إلا تقديسها . » قال زديج : « إن البحر الأحمر يحقق لك من النافع أكثر مما تحقق لك هذه الكواكب حين يحمل تجارتك إلى الهند . وما يمنعه أن يكون قديم العهد كالنجوم ؟ وإذا لم يكن بد من أن تعبد ما بعد عنك فقد يجب أن تعبد أرض جنجاويد التى هى في أقصى

العالم . « قال سيتوك : « كلا ! إن التجوم مشرقة إشراقاً يفرض على عبادتها . » فلما جن الليل أشعل زديج عدداً ضخماً من المصابيح في الخيمة التي كان يجب أن يجلس فيها إلى العشاء مع سيتوك . فلما أقبل مولاه جثاً أمام هذه المصابيح قائلاً : « أيها الضوء المشرق الخالد وفقني دائماً لما أريد . » ثم جلس إلى المائدة دون أن ينظر إلى سيتوك . قال سيتوك دهشاً : « ما خطبك ؟ » قال زديج : « إنما أصنع صنيعك ، فأعبد هذه المصابيح وأهمل سيدها وسيدى . » هنالك فهم سيتوك غوى هذه الإشارة ، ونفذت حكمة عبده إلى نفسه ، فأعرض عن عبادة المخلوقات وعبد الخالق الخالد الذي فطرها .

وكانت تتحكم في بلاد العرب لتلك الأيام عادة منكرة نقلت إليها من بلاد السيتيين بعد أن استقرت في الهند بفضل البراهمة وكادت تعم الأرض كلها . وكانت هذه العادة تقضى إذا مات رجل وأرادت امرأته أن تكون قديسة أن تحرق نفسها على جسم زوجها بمشهد من الناس . وكان ذلك يجري في حفل عظيم يسمى حريق الترمل . وكانت القبيلة التي تعد كثيراً من النساء المحرقات تمتاز بحسن الذكر وبعد الصوت . وقد مات عربي من قبيلة سيتوك ، فقررت زوجته ألونا وكانت صالحة ، أن تتبعه ، وأعلنت اليوم والساعة اللذين اختارتهما لتلقى نفسها في النار على قرع الطبول ودعاء الزامير . وقد أظهر زديج لسيتوك أن هذه العادة البشعة أشد الاساءة إلى النوع الانساني ؛ فهؤلاء النساء اللاتي يتركن نهياً للحريق في كل يوم خليقات أن يمنحن الدولة عدداً ضخماً من المواطنين ، وأن يربين أطفالهن على أقل تقدير . وما زال به حتى أقنعه بأن من الخير إلغاء هذه العادة إن كان ذلك ممكناً . قال سيتوك : « لقد مضى أكثر من خمس مئة وألف عام والنساء يحرقن ، فأينا يجروء على أن يغير قانوناً قدسه الزمن ؟ هل يوجد شيء أجدر بالاحترام من ظلم يعد به العهد ؟ » قال زديج : « إن العقل أقدم من هذه العادة . فتحدث أنت إلى شيوخ القبيلة ، وسأذهب أنا إلى هذه الأرملة الشابة . » فتلطف حتى قدم إليها ، ثم جعل يتملقها بالثناء على جلالها ، ثم بين لها أن مما يحزن ويسوء أن يحرق سحرها العظيم للنار ، ثم أثنى على ثباتها وشجاعتها . ثم قال لها : « أكنت تحبين زوجك إذن حبا جاً ؟ » قالت : « أنا ، كلا لم أحبيه قط ! لقد كان غنياً غيوراً لا سبيل إلى احتاله ، ولكنى على ذلك مصرة على

أن أحرق نفسي في أثره . » قال زديج : « يجب أن تكون هناك لذة لانظير لها في أن يحرق الانسان نفسه حيا . » قالت السيدة : « هذا شيء ترتعد له الفرائص ، ولكن لا بد مما ليس منه بد . إني تقيّة ، وما أحب أن أشتهر بالسوء ولا أن أتعرض للسخرية لاجتناب هذه النار . » فبين لما زديج أنها إنما تحرق نفسها إرضاء لغيرها ، وأن الغرور هو الذى يدفعها إلى ذلك . ثم مازال يرفق بها حتى حبب إليها الحياة شيئاً ما ، بل استطاع أن يعطفها قليلا على هذا الذى كان يتحدث إليها . ثم قال لها : « ما عسى أن تصنعى لو برئت من هذا الغرور الذى يدفعك إلى النار ؟ » قالت السيدة : « واحسرتاه لو برئت من هذا الغرور لطلبت إليك أن تتخذنى لنفسك زوجاً . »

ولكن زديج كان مشغولاً بحب استارتيه ، فلم ير بداً من أن يروغ عن هذا الدعاء . ثم سعى إلى شيوخ القبيلة ، وطلب إليهم أن يصدروا قانوناً يحظر على كل أرملة أن تحرق نفسها . دون أن تخلو ساعة كاملة إلى فتي من الفتيان . ومنذ ذلك الوقت لم تحرق عربية نفسها ، ودانت بلاد العرب لزديج بهذه المكرمة التى ألغى بها في يوم واحد عادة مضت عليها القرون . وأصبح زديج محسناً إلى بلاد العرب كلها .

### الفصل الثانى عشر

#### العشاء

وقد أصبح سيتوك حريصاً على ألا يفارق زديج هذا الذى استقرت الحكمة في قلبه ، فاستصحبه إلى سوق البصرة حيث كان يلتقى أكبر التجار في جميع أقطار الأرض التى يسكنها الناس . وكان لقاء عدد ضخم من الناس على اختلافهم في الوطن والمنزلة والطبقة مصدر عزاء لزديج عن بعض همّه . وقد خيل إليه أن العالم إنما هو أسرة كبيرة قد اجتمعت في البصرة . فلما كان اليوم الثانى من إقامته في البصرة جلس إلى مائدة العشاء مع جماعة فيهم المصرى والهندي من

جنجاريدي ، والنازح من أرض كتناي واليوناني ، والكلتي ، وآخرون من الغرباء ، وكل هؤلاء الناس قد تعودوا الرحلة إلى شط العرب حتى تعلموا شيئاً من العربية كانوا يديرون به الحديث فيما بينهم . وكان المصري يظهر شديد الغضب ، وكان يقول : « ما أقبح البصرة من بلد ! إن أهلها يأبون أن يقرضوني ألف مثقال من ذهب على أن يرتهنوا بها أقوم عين في الدنيا . » قال سيتوك : « وكيف كان ذلك ؟ وما هذه العين التي لم يرتهنوها بهذا المال ؟ » قال المصري : « جثة عمتي ، وكانت أرضي نساء مصر خلقاً ، وكانت ترافقني دائماً فأتت في بعض الطريق ، وقد اتخذت منها أحسن ما عرفت مصر من المومياء . ولو رهنيتها في وطني لأخذت عليها كل ما طلبت من مال . وإنه لغريب أن يضمن عليّ بألف مثقال مع أني أقدم في سبيلها هذا الرهن القيم الخطير . » وكان في أثناء غضبه يتهيا لأكل دجاجة سليق . فأخذ الهندي بيده وصاح متألماً : « ماذا تريد أن تصنع ؟ » قال صاحب المومياء : « أريد أن آكل من هذه الدجاجة . » قال الهندي : « إياك أن تفعل ! فقد يجوز أن يكون روح عمتك قد تقمص هذه الدجاجة ، وما أراك تحب أن تأكل عمتك . وإن في طبخ الدجاج لإهانة بالغة للطبيعة . » قال المصري الغضوب : « ماذا تريد أن تقول حين تحدثنا عن طبيعتك ودجاجك ؟ إنا نعبد الثور ونأكل منه مع ذلك . » قال ساكن شاطيء الجانج : « أيمكن أن تعبدوا ثوراً ؟ » قال المصري : « لا غرابة في ذلك ، فنحن نعيش على عبادة الثور منذ خمسة وفلائين ومئة ألف من السنين ، لم ينكر ذلك أحد منا . » قال الهندي : « خمسة وثلاثون ومئة ألف ! هذا غلو في الحساب . فلم تسكن الهند إلا منذ ثمانين ألف سنة ونحن مع ذلك أقدم منكم ، ليس في ذلك شك . وقد حرم علينا براهما أن نأكل من الثور قبل أن تضعوه أتم على المذابح لتعبدوه ، وفي النار لتأكلوه . » قال المصري : « إنك لتضحكي حين تذكر براهما لتوازن بينه وبين آيس . وماذا تظن أن براهما قد صنع من غرائب المعجزات ؟ » قال البراهمي : « هو الذي علم الناس القراءة والكتاب ، وهو الذي قدين له الأرض كلها بلعبة الشطرنج . » قال كلداني كان يجاورهما : « لقد أخطأت ! إنما يونس الحوت هو الذي أسدى إلى الناس هذه المكارم ، فينبغي أن يرد إليه حقه ويعرف له فضله . والناس جميعاً ينبئونك بأنه كان كائناً إلهياً له ذيل مذهب ورأس إنسان ، وأنه كان

يخرج من الماء ليعط أهل الأرض ثلاث ساعات في كل يوم . وقد ولد له بنون كثيرون وكلهم كان ملكاً كما يعرف الناس جميعاً . وإن عندى صورة له أعبدها كما ينبغي لها أن تعبد . وللناس أن يأكلوا من لحم الثور ما أحبوا ، ولكن ليس لهم أن يطبخوا السمك . ومع ذلك فأتما تنتميان إلى أصل حديث العهد قليل الحظ من الشرف فإ ينبغي لكما أن تجادلا . فالأمة المصرية لاتعد إلا خمسة وثلاثين ومئة ألف عام ، والهند لا تفاخر إلا بثمانين ألف عام ، أما نحن فان تقاويمنا تسجل أربعة آلاف من القرون . فاسمعا لى وأعرضا عن هذا الهذيان ، وأنا زعيم أن أهدي إلى كل واحد منكما صورة من صور يونس .

قال ساكن كبالو : « إني أكبر المصريين ، والكلدانيين ، واليونان ، والكلتيين ، وبراهما ، والثور آيبس ، والحوت العظيم يونس ، ولكن ربما كان «الى» وهونور الطبيعة أو «القيان» وهو السماء والاله أحق بالكرمة من الثور والسمك . ولن أقول شيئاً عن وطنى فهو أكبر من مصر وبلاد الكلدانيين والهند جميعاً . ولن أجادل فى قدم العهد ، فحسب الانسان أن يكون سعيداً ، وليس أهون من أن يكون قديم الأصل . وإذا لم يكذب من ذكر التقاويم فإنى أقول إن آسيا كلها تستعير تقاويمنا ، وأنا أحسنا وضع التقاويم قبل أن يتعلم الكلدانيون الحساب . »

هنالك صاح اليونانى : « إنكم جميعاً لجاهلون ! ألا تعلمون أن الكاووس هو أصل كل شئ ، وأن المادة والصورة هما اللتان جعلتا العالم كما هو الآن ؟ » وقد تكلم هذا اليونانى فأطال الكلام . ولكن الكلتي الذى أسرف فى الشرب أثناء هذا الحوار ظن أنه أعلم منهم جميعاً ، وصاح قائلاً إن ليس غير توته والبلوط شئ يستحق التكريم والاحلال ، وإنه هو يحمل دائماً من هذا الزهر فى جيبه ، وإن أجداده السيتيين هم وحدهم أهل الخير فى الأرض كلها ، وإنهم فى الحق ربما أكلوا جسم الانسان ، ولكن ذلك لا يمنع من أن من الحق على الناس أن يعرفوا لهم قدرهم ، وإن من ذكر توته بسوء فسيعلمه كيف ينبغي أن يعيش .

وقد اشتدت الخصومة حينئذ ، ورأى سيتوك أن المائدة توشك أن يصبغها الدم . وكان زديج قد احتفظ بالصمت أثناء هذا الحوار كله ، فهض إذذاك ثم اتجه إلى الكلتي لأنه كان أشد القوم غضباً وقال له إنه مصيب ، وطلب

إليه بعض زهره ، وحمد لليوناني بلاغته ، وهدأ النفوس الثائرة . ولم يقل لصاحب كتابي إلا قليلا لأنه كان أعقل القوم جميعاً . ثم قال لهم جميعاً : « أيها الأصدقاء لقد كدتم تختصمون في غير طائل لأنكم جميعاً متفقون . » هنالك تصايح القوم . قال للسيتي : « أليس من الحق أنك لا تعبد الزهر والبلوط ، وإنما تعبد صانعهما ؟ » قال الكلتي : « لا شك في ذلك . » « وأنت يا سيدى المصرى إنما تعبد في بعض الثيرة من خلق لك الثور . » قال المصرى : « نعم . » « ويونس الحوت يجب أن يذعن لمن خلق البحر والسماك . » قال الكلداني : « أوافق على ذلك . » قال : « والمندى والكاقي يعترفان من غير شك بالمبدأ الأول لكل شئ . ولم أفهم هذا الكلام الرائع الذى تكلم به اليوناني ، ولكنى واثق بأنه يسلم بوجود كائن عظيم هو الذى أنشأ المادة والصورة . » قال اليوناني وقد أحس الاعجاب به إن زديج قد فهم عنه حق الفهم . قال زديج : « فأنتم إذن على رأى واحد ، وليس هناك ما يدعو إلى الخصومة . » فأقبل القوم عليه يعاقبونه . ثم باع سيتوك تجارته بيعاً راجحاً وعاد مع صديقه إلى قبيلته ، ولكن زاديج عرف عند وصوله أن قضيته قد نظرت أثناء غيبته . وأن الحكم قد صدر عليه أن يحرق في نار هادئة

### الفصل الثالث عشر

#### الموعد

وكان كهنة الكواكب قد أزمعوا أثناء رحلته إلى البصرة أن يعاقبوه . فقد كانت جواهر الأرامل اللاتي يرسلن إلى النار وحليهن تؤول إليهم ، فلم يكن أقل من أن يحرقوا زديج عقاباً له على ما جر عليهم من خسارة . فاتهموه إذن بسوء رأيه في جيش السماء ورفعوا القضية ، وأقسموا على أنهم قد سمعوه يقول إن نجوم السماء لا تغرب في البحر . وقد ارتعد القضاة لهذا الكفر الشنيع ، وكادوا يمزقون ثيابهم حين سمعوا هذا المنكر من القول ، وقد كانوا أحرى أن يفعلوا

لو علموا أن لزديج من المال ما يعوض عليهم ثيابهم ، ولكنهم حين انتهى بهم الألم إلى أقصاه اكتفوا بالحكم عليه أن يحرق في نار هادئة . وقد جزع سيتوك وأنفق ما كان يملك من جهد لينقذ صديقه ، ولكنه أكره على الصمت إكراهاً . هنالك أرمعت الأرملة الشابة ألونا أن تنقذه ، وكانت قد أحبت الحياة بفضل زديج ، فأرادت أن تعصمه من النار التي بين لها ما فيها من الظلم . فأدارت رأسها في رأسها دون أن تتحدث به إلى أحد ، وكان مقررًا أن يحرق زديج من غده ، فلم يكن أمام الأرملة إلا الليل لانتقاذه . وإليك الخطة التي دبرتها في رحمة ورفق وحذر .

تعطرت وازينت حتى جعلت جمالها ساحراً فتاناً ، ثم طلبت لقاء خاصا إلى رئيس كهنة النجوم . فلما مثلت أمام هذا الشيخ الجليل قالت له : « أيها الابن البكر للذب الأعظم يا أخا الثور ، وابن عم الكلب الأكبر — وكانت هذه ألقاب رئيس الكهنة — لقد أقبلت أفضى إليك بذات نفسي . إني لشفقة أن أكون قد وقعت في خطيئة عظيمة حين لم أحرق نفسي في أثر زوجي العزيز . وعلى ماذا أردت أن أبقى جسم هالك قد أخذت فيه السن ! » قالت ذلك وهي تخرج من كهها الحريري الطويل ذراعها العارية ذات الصورة الرائعة والبياض الحلاب ، قالت : « أنظر ما أهون هذا وما أقل خطره ! » ووجد زعيم الكهنة في دخيلة نفسه أن هذا شيء عظيم الخطر ، قالت ذلك عيناها وأكد ذلك فمه ، فقد أقسم أنه لم يرق قط في حياته أجمل من هذه الذراع . قالت الأرملة : « واحسرتاه ! لعل الذراع أن تكون خيراً من سائر الجسم ، ولكنك توافقني على أن النحر لم يكن خليقاً بعناتي . » ثم أظهرت أجمل ثدي صنعته الطبيعة لوقرن إليه زر من الورد على تفاحة من العاج لأذى بها ، ولوقرن إليه الحملان بعد غسلها لظهرت بالقياس إليه صفراء مشبعة بالسمرة . هذا النحر ، وهاتان العينان الكبيرتان الفاترتان المشرقتان بنار رفيقة ، وهذان الخدان اللذان يزدهيان بأجمل الأرجوان قد خالطه بياض اللبن النقي ، وأنفها الذي لم يكن كبرج جبل لبنان ، وشفثاها اللتان كانتا كطرفي محارة من مرجان تضمحل أجمل ما في بحر العرب من اللآلئ<sup>(١)</sup> ، كل هذا مجتمعاً أشعر الشيخ بأنه ابن عشرين ،

فأعلن إليها حبه متلعثماً . ولما رآته ألونا ملتهباً سألته العفو عن زديج ، قال : « واحسرتاه ! أيتها السيدة الحسنة لو أجبتك إلى ما تطلين لما أغنى عفوى عنه شيئاً . فقد يجب أن يمضى هذا العفو ثلاثة آخرون من الزملاء . » قالت ألونا : « فأمض أنت . » قال الكاهن : « مع السرور بشرط أن يكون عطفك ثمناً لعفوى . » قالت ألونا : « إنك لتغلو في تشريفي ، فتفضل بزيارتي إذا غربت الشمس وأشرقت في الأفق النجمة شيت ، فستجدني على إيوان وردى اللون ، وستصنع بخادمك ما تشاء . » ثم خرجت ومعها الإيمضاء ، وتركت الشيخ يصصره الحب ويخيفه الشك في قوته ، وأنفق سائر اليوم في هامه ، واحتسى شراباً مزاجه من قرفة سيلان وبهار تيدوروترنات ، وانتظر وقد كاد يفقد الصبر أن تظهر النجمة شيت في الأفق .

وفي أثناء ذلك مضت ألونا الحسنة فلقيت الكاهن الثاني ، فأكد لها أن الشمس والقمر وكل ما في السماء من نجوم ليست إلا ناراً موهومة بالقياس إلى سحرها . فطلبت إليه العفو نفسه، وطلب إليها أن تؤدي ثمنه ، فأظهرت الإيمضاء وضربت موعداً للكاهن الثاني حين تشرق النجمة الجنيب . ثم مضت إلى الكاهن الثالث وإلى الكاهن الرابع ، ظافرة دائماً بالإيمضاء ، ضاربة موعداً من نجم إلى نجم . ثم طلبت إلى القضاة أن يلتموا بدارها لأمر ذي بال . فلما حضروا أظهرت لهم الأسماء الأربعة ، وأنبأهم بأى ثمن باع الكهنة عفوهم عن زديج . وأقبل كل واحد من الكهنة في مواعده ، ودعش كل واحد منهم حين رأى زملاءه وبنوع خاص حين رأى القضاة الذين تبينوا خزيهم واضحاً . وكذلك نجح زديج ، أما سيتوك فقد فتنته مهارة ألونا ، فاتخذها له زوجاً .

## الفصل الرابع عشر

### الرقص

وكان على سيتوك أن يذهب بتجارته إلى جزيرة سرنديب ، ولكن الشهر الأول لزواجه - وهو كما يعلم الناس جميعاً شهر العسل - لم يسمح له بفراق امرأته ولا بتخيل أنه يستطيع فراقها إلى آخر الدهر ، فتقدم إلى خليفه زديج أن يقوم عنه بهذه الرحلة . وكان زديج يقول في نفسه : « واحسرتاه ! أيجب أن أمعن في السفر حتى أجعل بين أستارتيه وبينى أبعد الآماد ! ولكن يجب أن أخدم من أحسنوا إلى » . « قال ذلك ثم بكى ثم ارتحل .

ولم يمض عليه قليل من الوقت في جزيرة سرنديب حتى نظر إليه على أنه رجل متفوق ممتاز ، وقد أصبح حكماً بين كبار التجار وصديقاً للحكام ومشيراً على هذه القلة من الناس الذين يحبون أن يستشيروا . وقد أراد الملك أن يراه ويسمع منه . فما أسرع ما عرف قيمته ووثق بحكمته واتخذة خليلاً . وقد اضطرب زديج لما وجد عند الملك من إلف ومودة ؛ فقد كان في أثناء الليل والنهار مروعاً بما جرت عليه عشرة مؤبدار من شقاء . وكان يقول لنفسه : « لقد أعجبت الملك ، أفلا يمكن أن يسوقني هذا إلى التهلكة ؟ » ولم يكن من الممكن مع ذلك أن يتخلص من لطف الملك ، فيجب أن نعترف بأن نابوسان ملك سرنديب ، ابن نوساب ابن نابسون ، ابن سنبوسنا كان من خيرة ملوك آسيا ، وكان عسيراً على من تحدث إليه ألا يجبه .

وكان هذا الملك الكريم ممدحاً دائماً مغشوشاً دائماً مسروقاً دائماً ، وكان صاحب بيت المال في سرنديب قدوة في ذلك يتبعها الموظفون جميعاً . وكان الملك يعلم ذلك ، وقد غير صاحب بيت ماله غير مرة ، ولكنه لم يستطع تغيير السنة المقررة التي تقتضي أن يقسم دخل الملك إلى قسمين غير متساويين ، يبقى أصغرهما لجلالته ، ويؤول أكبرهما إلى الموظفين .

وقد أفضى الملك نابوسان بهمه هذا إلى زديج . قال له ذات يوم : « إنك تعرف أشياء كثيرة قيمة ، فهل تعرف الطريق إلى أن أجد خازناً للمال لا يخون ؟ » قال زديج : « ليس في ذلك شك ، إني أعرف السبيل الأمانة إلى أن أجد لك خازناً نقي اليدين » . قال الملك مأخوذاً وهو يقبله : « ما عسى أن تكون هذه السبيل ؟ » قال زديج : « إنما هي أن تدعو المرشحين لهذا المنصب جميعاً إلى الرقص ، وأهمهم كان رقصه خفيفاً نشيطاً فأتمنه على بيت مالك » . قال الملك : « إنك لتمزح ، وإنها لطريقة رائعة يختار بها الأمين على بيت المال . ماذا ! أتزعم أن أحسن الناس وثباً وعبثاً بقدميه هو الخازن الأمين النقي ؟ » قال زديج : « لا أزعم لك أنه سيكون أمهر الخزان ، ولكني أؤكد أنه سيكون أعظمهم حظاً من الأمانة . » وكان زديج يقول هذا في ثقة وحزم ، حتى خيل إلى الملك أن لديه سرا خارقاً يعرف به دخائل المديرين للأموال . قال زديج : « إني لا أحب الخوارق ، وقد ضقت دائماً بأصحابها وبالكُتب التي تخوض فيها . فإذا أذنت جلالتك لي في تنظيم الامتحان الذي أقترحه فستعلم أن السر يسير لا عسر فيه ولا التواء . » وقد دهش نابوسان ملك سرنديب حين سمع أن هذا السر يسير سهل أكثر مما كان خليقاً أن يدهش لو قيل له إن السر خارق لقوانين الطبيعة . قال لزديج : « هو ذاك ، فنظم الامتحان كما تشاء . » قال زديج : « دعني أفعل وستربح من هذا الامتحان أكثر مما تقدر . » وفي اليوم نفسه أعلن باسم الملك أن من يرشح نفسه لإدارة بيت المال للملك نابوسان بن نوساب فعليه أن يتخذ ثوباً من حرير رقيق ، وأن يسعى إلى قصر الملك في اليوم الأول من شهر التمساح . وقد سعى المرشحون إلى القصر وكان عددهم أربعة وستين رجلاً ، وكانت قد أعدت في الحجرة المجاورة جوقة موسيقية . وقد أعد للرقص كل شيء ولكن باب الحجرة ظل مغلقاً ، وكان من أراد الوصول إلى الحجرة سلك إليها ممراً ضيقاً مظلماً بعض الشيء . وأقبل حاجب فقاد المرشحين واحداً في إثر واحد إلى الحجرة من هذا الممر ، وجعل يترك كل واحد منهم فيه منفرداً دقائق . وكان الملك قد عرف سر زديج فعرض كنزه كله في هذا الممر . فلما انتهى المرشحون جميعاً إلى الحجرة أمر الملك بترقيصهم . ولم ير أحد قط راقصين رقصوا في غير ظرف ولا خفة كهؤلاء الناس الذين كانوا يرقصون وقد خفضوا رؤوسهم وحنوا ظهورهم وألقوا أذرعهم بمحبوبهم ، وكان زديج يقول همساً :

« يا لهم من خونة ! » وكان واحد منهم ليس غير ، يرقص رقصاً خفيفاً مرفوع الرأس مطمئن الحظ مستقيم القد محدود الذراعين ثابت الساقين . وكان زديج يقول : « يا له من رجل شريف ! يا له من رجل كريم ! » وقد قبل الملك هذا الراقص المجيد وجعله على خزائنه وعوقب الآخرين وفرضت عليهم الغرامات في أدق العدل وأقومه ؛ فقد كان كل واحد منهم أثناء اجتيازه للممر قد ملأ جيوبه حتى أثقله ما حمل ، فلم يكن يرقص إلا في جهد شديد . وقد حزن الملك على الطبيعة الانسانية ؛ إذ رأى بين أربعة وستين راقصاً ثلاثة وستين سارقاً . وسمى المر المظلم دهليز الإغراء . ولو وقع هذا الحادث في فارس لسبق الثلاثة والستون رجلاً إلى العذاب ، ولو وقع هذا الحادث في بلد آخر لحوكم هؤلاء الناس أمام محكمة ينفق عليها ثلاثة أمثال المال السروق ، دون أن تعيد إلى خزانة الملك شيئاً . وفي بعض البلاد الأخرى كان هؤلاء السارقون يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم أحسن الدفاع ، وأن يصبوا غضب الملك على هذا الراقص الخفيف . أما في سرنديب فلم يقض على هؤلاء الناس إلا بل غناء بيت المال ؛ لأن نابوسان كان رجلاً حليماً عفوياً .

وكان كذلك عارفاً للجميل ، فأهدى إلى زديج مالا عظيماً أعظم مما سرق أي سارق من خزانة الملك . وقد انتفع زديج بهذا المال ، فأرسل رسلاً إلى بابل ليعلموا له علم أستاذه . وقد اضطرب صوته حين أصدر أمره إلى الرسل وعاد دمه إلى قلبه ، وغشيت عينيه سحابة من ظلمة ، وكادت نفسه تفارقه ، وقد أبحر الرسل ورآهم زديج يبحرون ، فعاد إلى قصر الملك . ولما لم ير أحداً ظن نفسه في خلوة فنطق لسانه بلفظ الحب . قال الملك : « الحب ! إنه هو الذي يشغلني . لقد استطعت أن تعرف مصدر حزني . إنك لرجل عظيم ، وإني لأرجو أن تدلني على الطريق التي أعرف بها امرأة أمينة شريفة كما دلتني على الطريق التي اهتديت بها إلى خازن أمين . » وقد تاب زديج إلى نفسه ، ووعد الملك بأن يعينه على الحب كما أعانه على تديين المال ، وإن كان أمر الحب أشد عسراً .

## الفصل الخامس عشر

### العيون الزرق

قال الملك لزديج : « الجسم والقلب . . . » فلم يستطع البابلي إلا أن يقطع الملك قائلا : « ما أشد شكرى لك لأنك لم تقل العقل والقلب ! فإنا لا نسمع إلا هاتين الكلمتين في أحاديث البابليين . وما أكثر ما نقرأ من الكتب التى تتحدث عن القلب والعقل ، وقد أنشأها قوم لا حظ لهم من قلب أو عقل . ولكن تفضل يا مولاي فأتم حديثك . » قال نابوسان : « إن جسمى وقلبى قد خلقا للحب ، وقد رضى الأول ؛ ففى قصرى مئة امرأة قد خصصت لخدمتى ، وكلهن حسان طائعات سابقت إلى ما أريد ، بل محبات للذة أو متكلفات هذا الحب ابتغاء مرضاتى . ولكن قلبى بعيد أشد البعد عن السعادة . فقد تبينت أكثر مما ينبغى أن هؤلاء النساء يمتعن ملك سرنديب ، ولا يفكرون فى نابوسان . ولست أظن بنسائى خيانة أو إثماً ، ولكن أود لو أجد نفساً تخلص لى . ولو قد ظفرت بهذا الكنز لافتديته بهذه المئة من الحسان اللاتي يمتعننى بسحرهن ، فانظر هل تجد فى هذه المئة من السلطانات واحدة أستطيع أن أثق بأنها تحبنى ؟ » فأجابه زديج على نحو ما أجابه حين ذكر له الخُزَّان : « مولاي ، دعنى أفعل ، وأذن لى فى أن أتصرف فى الكنوز التى عرضتها فى الممر ، وسأرفع إليك حسابها ولن تفقد منها شيئاً » . فترك له الملك الأمر كله . وتخبر هو من بين أهل سرنديب ثلاثة وثلاثين رجلاً كلهم أحذب ، وكلهم قد منى بقبح بشع ، وتخبر كذلك ثلاثة وثلاثين من خدم القصر كلهم رائع الجمال ، وثلاثة وثلاثين كاهناً كلهم فصيح وكلهم قوى ، وترك لهم جميعاً الحرية فى أن يدخلوا على السلطانات فى مقاصيرهن ، وأتيح لكل أحذب أربعة آلاف دينار يغرى بها . فلم يمض اليوم الأول حتى كان الحذب جميعاً سعداء . أما خدم القصر الذين لم يكن لديهم ما يعطون إلا أنفسهم فلم ينتصروا إلا بعد يومين أو ثلاثة أيام .

أما الكهنة فقد وجدوا مشقة أشد ، ولكن ثلاثاً وثلاثين من الصالحات أسمعهم  
 لهم آخر الأمر . وكانت للملك نوافذ يشرف منها على هذه المقاصير ، فرأى هذا  
 الامتحان كله وبلغ منه العجب أقصاه . وقد رأى تسعاً وتسعين من نسائه  
 يسقطن بمنظر منه . وبقيت واحدة شابة حديثة لم يدن منها الملك قط . فأرسل  
 إليها أحذب وأحدهان وثلاثة عرضوا عليها أكثر من عشرين ألف دينار . ولكنها  
 ثبتت على الشرف ، وضحكت من هؤلاء الحذب الذين قدروا أن المال يبلغهم  
 ما يشاءون . ثم قدم إليها خادمان هما أروع الخدم جمالا ، فقالت إنها ترى  
 الملك أجمل منهما . ثم أغرى بها أفصح الكهنة ثم أقواهم ، فوجدت أولها ثثاراً  
 ولم تلتفت إلى ثانيهما . وكانت تقول : « إن القلب هو كل شيء » ، ولن أستسلم  
 آخر الدهر لأحذب من أجل ماله ، ولا لشاب من أجل جماله ، ولا لكاهن  
 من أجل فتنته ، إنما أحب نابوسان بن نوسناب ، وسأنتظر أن يتنزل فيحبنى . »  
 هنالك غلب الفرج والدهش والحنان على الملك ، فأخذ كل ما قدم الحذب إلى  
 النساء من مال وقدمه هدية إلى السلطانة الشابة ، وكانت تسمى فاليد . ثم  
 أهدى إليها قلبه وكانت خليقة به ، ولم يرقط زهرة الشباب أشد إشراقاً ولا  
 سحر الجمال أشد فتنة للقلوب كما رأهما فيها . والدقة التاريخية لا تسمح بأن  
 نخفى أنها لم تكن تحسن التحية ، ولكنها كانت ترقص رقصاً رائعاً ، وتغنى كبنات  
 البحر ، وتحدث كالمهال الجمال ، وكان حظها عظيماً من الفضيلة والذكاء .  
 وقد أحببت نابوسان ، وعبدها هو ، ولكن عينيها كانتا زرقاوين ، وكانت  
 زرقاء عينيها مصدر شقاء عظيم . وكان في بابل قانون قديم يحظر على الملك أن  
 يحب امرأة من هؤلاء النساء اللاتي سماهن اليونانيون فيما بعد ذوات عيون المها .  
 وكان زعيم الكهنة قد شرع هذا القانون منذ خمسة آلاف سنة ، أراد بذلك  
 أن يستأثر بخليلة الملك الأول بجزيرة سرنديب ، وجعل هذا القانون جزءاً من  
 دستور الدولة ؛ فما هي إلا أن تسعى طبقات الدولة كلها إلى الملك لترفع إليه  
 احتجاجها . وجرى على الألسنة كلها أن ساعة المملكة قد اقتربت ، وأن الشر  
 قد بلغ أقصاه ، وأن الطبيعة كلها معرضة لخطر عظيم ؛ لأن نابوسان بن نوسناب  
 يجب عينين كبيرتين زرقاوين . وقد امتلأت المملكة بشكاة الحذب ورجال  
 المال والكهنة والنساء السمر .

وانتهز الشعب المتوحش الذي يسكن شمال الجزيرة فرصة هذا السخط

العام ، فأغار لُجأة على مملكة نابوسان الخير ، وطلب الملك إلى رعيته مالا ، فاكتمى الكهنة الذين يملكون نصف الدولة برفع أيديهم إلى السماء ، وأبوا أن يدخلوها في خزائهم ليعينوا الملك ، وأعلنوا صلوات موسيقية رائعة ، وتركوا الدولة نهبا للمغيرين المتوحشين .

قال نابوسان : « أيها العزيز زديج أمتقدي أنت من هذه الورطة أيضاً ؟ » قال زديج : « حباً وكرامة ، ستظفر من أموال الكهنة بكل ما تريد . فدع الأرض التي أقاموا عليها قصورهم ودافع عن أرضك وحدها . » وقد استجاب نابوسان إلى زديج ، فما أسرع ما أقبل الكهنة إليه ضارعين يلتمسون معونته . وقد أجابهم الملك بصلاة موسيقية رائعة توصل فيها إلى السماء أن تحمي أرضهم من العدوان . هناك قدم الكهنة أموالهم ، وانتهى الملك بالحرب إلى غاية سعيدة . وكذلك جر زديج على نفسه بمشورته الحكيمة الموفقة وخدمته العظيمة عداوة لا هودة فيها من أكبر رجال الدولة . فاقسم الكهنة والنساء السحر ليهلكنه ، وتحالف الحذب ورجال المال على أن ينقصوا عليه الحياة . وما زالوا به حتى شككوا فيه الخير نابوسان . وقد قضى زرادوشة بأن ما يؤدي من خدمة يظل في حجرة الانتظار ، وبأن الشك والريبة ، ينفذان إلى ما وراء الأبواب . وكان كل يوم يتكشف عن اتهام جديد . فأما التهمة الأولى فتدفع ، وأما التهمة الثانية فتمس مساً رقيقاً ، وأما الثالثة فتجرح ، والرابعة هي التي تقتل .

وكان زديج قد ارتاع لما رأى ، وكان قد باع تجارة صديقه سيتوك وحصل أمواله ، فلم يفكر منذ ذلك الوقت إلا في الرحيل ، وأزمع أن يذهب بنفسه ليعلم علم أستاذه . وكان يقول لنفسه : « إن أقمت في سرنديب دفعني الكهنة إلى العذاب . ولكن إلى أين أذهب ! سأكون رقيقاً في مصر ، وسأحرق في أكبر الظن إن ذهبت إلى بلاد العرب ، وسأشتق في بابل . ومع ذلك يجب أن أعلم مصير أستاذه ؛ فلترحل ولننظر ماذا ادّخر لي القضاء الكئيب . »

## الفصل السادس عشر

### قاطع الطريق

بلغ زديج الحدود التي تفصل بين بتراء وسوريا ، فرأى قصرًا عظيمًا خرج منه أعراب مسلحون ، ورأى نفسه وقد أحيط به والأعراب من حوله يتصايحون : « كل ما معك من مال فهو لنا ، أما شخصك فليس لنا . » وقد أجاب زديج فاستل سيفه ، وكان خادمه شجاعًا فصنع صنيعة . وما هي إلا أن يصرعاً من الأعراب أول من تقدم إليهما ليضع عليهما يده ، ثم تضاعف العدد ، فلم يدهشهما ذلك وإنما أزمعا أن يموتا محاربين . وكان رجلان يقاتلان جماعة ضخمة من الناس وموقعة كهذه لا يمكن أن تطول . وكان صاحب القصر واسمه أربوجاد ينظر من إحدى النوافذ ، فلما رأى بلاء زديج ونجدته أحبه ؛ فنزل مسرعاً وأقبل حتى فرق عنه الجماعة وقال : « كل ما مر بأرضي فهو لى ، وكل ما وجدت بأرض غيرى فهو لى أيضاً ، ولكنى أراك رجلاً شجاعاً ، فقد وضعت عنك ثقل هذا القانون العام . » ثم أدخله القصر ، وأمر أصحابه أن يحسنوا العناية به . فلما كان المساء دعاه إلى مائدته .

وكان سيد القصر رجلاً من هؤلاء الأعراب الذين يسمون لصوصاً ، ولكنه كان أحياناً يأتي قليلاً من الحسنات بين كثير من السيئات : كان يسرق في كثير من البطمع وحب المال ، وكان يعطى فى كرم وسخاء . كان شجاعاً فى الحرب ، حلو العشرة ، ماجناً على المائدة مراحاً فى مجونه ، وكان على هذا كله شديد الصراحة . وقد أعجبه زديج إعجاباً شديداً ، وقد كان حديثه نشيطاً حيا فطال جلوسه إلى المائدة . ثم قال أربوجاد : « إني أنصح لك بأن تنضم إلى جندى ، فذلك خير ما تستطيع أن تصنع ؛ فان هذه المهنة لا بأس بها ، وجائز أن تصل ذات يوم إلى ما وصلت أنا إليه . » قال زديج : « هل لى أن أسألك منذ كم مارست هذه المهنة الشريفة ؟ » أجاب : « منذ شببتي لأولى ، فقد كنت

خادماً لعربي ماهر ، وكنت أبغض مكاني منه أشد البغض ، وكنت شديد الخلق لما كنت أرى من أن هذه الأرض التي سخرت للناس جميعاً لم يتح لي منها نصيب . فأفضيت بهمى إلى عربي شيخ ، فقال لي : يا بني ، لا تيأس ، فقد كانت في قديم الزمان حبة من رمل تشكو من الشكوى من أنها ذرة ضئيلة في الصحراء ، فلما مضت عليها سنون أصبحت ماسة ، وهي الآن أبهى ما يزدان به تاج ملك الهند . وقد أثر في هذا الحديث . كنت حبة الرمل ، فأزمت أن أصبح ماسة . وقد بدأت فسرقت فرسين ، ثم جمعت حولي بعض الرفاق ، وتهيأت للسطو على صغار القوافل ، وكذلك ألغيت قليلاً قليلاً ما كان بين الناس وبينى من الفروق . وقد أخذت حظي من متاع هذه الدنيا ، ولعلني أن أكون نلت من الخير أضعاف ما احتملت من الحرمان . وقد ارتفعت مكاتي بين الناس وأصبحت أميراً قاطع طريق ، وأخذت هذا القصر عنوة . وقد هم حاكم سوريا أن ينتزعه مني ، ولكنني كنت قد بلغت من الغنى حداً لا أخاف معه شيئاً . ثم بسطت سلطاني على جزء عظيم من الأرض ، وعهد إلى أن أكون جايئاً للاتاة التي تؤديها بتراء إلى ملك الملوك . وقد جيت الاتاة ، ولكن لم أؤد منها شيئاً .

« وقد أرسل خازن بيت المال للملك مؤبدار في بابل حاكماً ما ليشتقي ، وقد أقبل هذا الرجل ومعه الأمر بشنقي ، وكان يعلم كل شيء ، وقد شنقت بين يديه الأشخاص الأربعة الذين استصحبهم لشنقي . ثم سألت ما عسى أن يغل عليه شنقي من المال ؟ قال : نحو ثلاث مئة دينار . فبينت له أنه يستطيع أن يكسب عندي أكثر من ذلك . ثم جعلته لصاً مساعداً ، وهو الآن من خيرة رجالي . وإنك لخليق إن أطعني أن تنجح كما نجح . فلم تكن الظروف قط موالية للسطو كما هي الآن بعد قتل مؤبدار . »

قال زديج : « قد قتل مودبار ؟ وإلام صار أمر الملكة أستارتيه ؟ » قال أربوجاد : « لا أدري ! وكل ما أعرفه هو أن مؤبدار قد جن ثم قتل ، وأن بابل قد أصبحت موطناً للجرائم ، وأن الدولة كلها قد ظهر فيها الفساد ، وأن هناك سبلاً إلى العمل ، وأنني قد أبلت بلاء حسناً وحقيقاً بالاعجاب . » قال زديج : « ولكن أضرع إليك في أن تبني : ألا تعلم من أمر الملكة شيئاً ؟ » قال أربو اد : « لقد حدثت عن أمير لأركانيا ، وأحسب أنها بين إمائه إن لم تكن قد قتلت في الواقعة . ولكنني أحرص على الغنيمة مني على الأنباء . وقد أخذت



## الفصل السابع عشر

### الصائد

فلما كان على مراحل من قصر أربوجاد وجد نفسه على شاطئ جدول صغير وهو يندب حظه ويرى أنه صورة صادقة للشقاء . ولكنه رأى غير بعيد منه صائداً نائماً على الشاطئ ممسكاً في فتور وييد كسلى شبكته التي كان كأنه يهملها وقد رفع عينيه إلى السماء وهو يقول :

— إني لأشقى الناس جميعاً ، ما في ذلك شك . لقد كنت عند أهل بابل أعظم باعة الجبن الأبيض ، ثم حل بي الخراب . ولقد كانت زوجي أبجل امرأة أتاحت لرجل وقد خاتنتي . وقد بقيت لي دار ضئيلة حقيرة ، فرأيتها تنهب وتدمر ، وأنا الآن لاجئ إلى كوخ صغير لا أجد سبيلاً إلى الرزق إلا الصيد ، ولكن لا أطفر بسمكة واحدة . أيتها الشبكة لن ألقيك في الماء بل سألقى نفسي فيه .

ثم نهض ويسعى في هيئة الرجل الذي يريد أن يلقي نفسه في الماء ليختم حياته .

قال زديج لنفسه : « ماذا ؟ أفى الناس من يعدل شقاؤهم شقائي ! » ثم كان نشاطه إلى إنقاذ هذا الرجل سريعاً كخاطره هذا ، فيجري إليه فيمسكه ويسأله في لهجة يشيع فيها الرفق والحنان والتعزية . والناس يزعمون أن الشقاء يخف على الانسان إذا لم يكن وحيداً . ولكن مصدر ذلك فيما يقول زرادوشت ليس هو الدهاء ، وإنما هي الحاجة ، فالانسان يشعر حينئذ بأنه مجذوب إلى إنسان شقى كما يجذب النظر إلى نظيره ، بحيث يصبح ابتهاج الرجل السعيد كأنه إهانة للبؤس . ولكن الشقيين إذا التقيا كانا أشبه بشجيرتين تعتمد كل واحدة منهما على صاحبتها فتشبتان بذلك للعاصفة .

قال زديج للصيد : « لماذا تستسلم للشقاء ؟ » قال الصياد : « لأنني لا أجد

لى منه مخرجاً . لقد كنت أرفع الناس مكانة في قرية دير لباك قريباً من بابل ،  
و كنت أصنع مستعينةً بامرأتى أجود ما في الدولة من الجبن الأبيض ، وكانت  
الملكة أستارتيه والوزير المشهور زديج يحبان هذا الجبن أشد الحب . وقد  
قدمت إلى قصرهما ست مئة قطعة منه . وذهبت ذات يوم إلى المدينة لأقبض  
الثن ، فلما وصلت إلى بابل عرفت أن الملكة وزديج قد استخفيا . فأسرعت  
إلى قصر زديج ولم أكن عرفته قط ، وإذا أنا أرى جند صاحب الخزانة ومعهم  
أمر ملكي يهبون القصر ويدسرونه كأحسن ما يكون النهب والتدمير . فأسرعت  
إلى مطبخ الملكة ، وهناك أنبأني بعض القائمين على طعامها أنها ماتت وقال  
آخرون إنها في السجن ، وزعم آخرون أنها لا ذت بالفرار . ولكنهم جميعاً  
أكدوا لي أن ثمن الجبن لن يؤدي إلى . فذهبت ومعى امرأتى إلى الأمير  
أوركان ، وكان أحد عملائي ، وطلبت إليه أن يحميني من هذه الحنة . فمنح حايته  
لامرأتى ورفض أن يمنحني إياها ، وكانت أنصع بياضاً من هذا الجبن الذي  
كان أصل شقائي ، ولم يكن إشراق الأرجوان الذي تصدره مدينة صور أشد  
بهجة مما كان يشرب بياضها من الحمرة . وهذا هو الذي أغرى أوركان  
باحتيالها وطردى من قصره . فكتبت إلى امرأتى العزيزة رسالة من بلغ به  
الحزن حد اليأس . فقالت لمن أدى إليها الرسالة : « إني لا أعرف صاحبها ! لقد  
سمعت الناس يتحدثون عنه ، يقال إنه يصنع جبناً متقناً فليحمل إلى بعض  
هذا الجبن وليؤدي إليه ثمنه . »

« فلما اشتد بي الشقاء أردت أن ألجأ إلى القضاء . ولم يكن بقي لي إلا  
سنة مثاقيل من ذهب ، فلم يكن بد من أن أدفع اثنين منها إلى رجل القانون  
الذي استشرته ، واثنين للنائب الذي تولى قضيتي ، واثنين لأمين القاضي  
الأول . فلما فرغت من هذا كله لم تكن قضيتي قد ابتدئت ، و كنت قد أنفقت  
من المال أكثر مما يساوي جبنى ومما تساوى امرأتى . فعدت إلى قريتي وأنا  
أريد أن أبيع دارى لأسترد امرأتى . » وكانت دارى تقوّم بستين مثقالاً من الذهب ، ولكن الناس كانوا  
يرونني فقيراً حريصاً على البيع . فساومني أول من عرضت عليه الدار ثلاثين  
مثقالاً ، وعرض على الثاني عشرين والثالث عشرة . و كنت مستعداً لإمضاء  
البيع لكثرة ما كان يشغلني عن التبر في أمرى . ولكن أمير أركانيا

أقبل مغيراً على بابل ودمر في طريقه كل شيء، ونهبت دارى أول الأمر ثم أشعلت فيها النار.

« فلما فقدت مالى وامراتى ودارى أويت إلى هذه الأرض حيث ترانى ، وحاولت أن أعيش من صناعة الصيد . ولكن السمك يسخر منى كما يسخر منى الناس فلا آخذ منه شيئاً . وقد كاد الجوع أن يهلكنى ، ولولا أنت أيها المعزى الكريم لأغرقت نفسى فى هذا النهر . »

لم يسق الصياد قصته هذه على نسق واحد ؛ فقد كان زديج يقاطعه من وقت إلى وقت متأثراً محزوناً قائلاً : « ماذا ؟ ألا تعلم شيئاً عن مصير الملكة ؟ » كان الصياد يجيبه : « لا يا سيدى ! ولكنى أعلم أن الملكة وزديج لم يؤديا إلى ثمن الجبن ، وأن امرأتى قد أخذت منى ، وأنى قد صرت إلى اليأس . » قال : « أنا أزعم أنك لن تفقد مالك كله ؛ فقد سمعت الناس يتحدثون عن زديج هذا وهو رجل شريف ، وأنه إذا عاد إلى بابل كما يأمل أن يعود إليها لؤد إليك أكثر مما لك عنده . أما امرأتك التى ليست على هذا الحظ من الوفاء فانى أنصح لك أن تتخذ مكانها زوجاً أخرى . صدقنى وعدى إلى بابل ، وسأبلغها قبل أن تصل أنت إليها ، فأنا فارس وأنت راجل . فاذا بلغت المدينة فاذهب إلى كادور المشهور وقل له إنك لقيت صاحبه فى بعض الطريق وانتظرنى عنده حتى ألقاك . إمض فعسى ألا تكون شقياً دائماً . »

ثم مضى زديج قائلاً : « أيها القوى العظيم أورواماد إنك لتسخرنى لتعزية هذا الرجل ، فمن عسى أن تسخر لتعزيتى ؟ » قال ذلك ودفع إلى الصياد نصف المال الذى احتمله من بلاد العرب كلها ، وجعل الصياد الدهش السعيد يقبل رجله ويقول : « إنما أنت ملك منقذ . »

وكان زديج مع ذلك يطلب الأنباء ويذرف الدموع . قال الصياد : « ماذا يا سيدى ! أيمكن أن تكون شقياً إلى هذا الحد وأنت الذى يبذل المعروف ؟ » قال زديج : « إنى لأشقى منك مئة مرة . » قال الصياد : « ولكن كيف يمكن أن يكون من يعطى أشد شقاء ممن يأخذ ؟ » قال زديج : « لأن معظم شقائك يأتى من الحاجة ، أما شقائى فمصدره القلب . » قال الصياد : « أيمكن أن يكون أوركأن قد اغتصب منك زوجك ؟ » فأثارت هذه الكلمة فى نفس زديج ذكرى مغامراته كلها ، وجعل يعدد ما ألم به من المصائب ،

مبتدئاً بكلبة الملكة ومنتهياً بوصوله إلى قصر أربوجاد . ثم قال للصيد : « إن أوركان خليك أن يعاقب ، ولكن العادة جرت بأن أمثاله هم أحسن الناس حظاً . ومهما يكن من شيء فامض إلى قصر السيد كادور ، وانتظرني هناك . » ثم افترقا ، ومضى الصيد يثنى على حظه ، وعاد زديج يلعن حظه لعناً .

### الفصل الثامن عشر

#### الباسليك

وانتهى زديج إلى مرج جميل ، فرأى جماعة من النساء يبحثن عن شيء ويمعن في البحث . فاستباح لنفسه أن يدنو من إحداهن وسألها : ألا يستطيع أن يشرف بمعوتتهن على التماس ما يبحثن عنه . قالت السورية : « إياك أن تفعل ؛ فان ما نلتمسه لا ينبغي أن يمسسه إلا النساء . » قال زديج : « هذا شيء غريب ، هل لي أن أسألك عن هذا الذي لا ينبغي أن يمسسه إلا النساء ؟ » قالت : « إنه الباسليك . » قال زديج : « الباسليك يا سيدتي ! وفيم تبحثن عن الباسليك ؟ » قالت السورية : « إنما نبحت عنه لمولانا أوجول صاحب هذا القصر الذي تراه على شاطئ النهر في أقصى المرج ، فنحن إمأوه ، وقد أصابته علة فوصف له الطبيب الباسليك مطبوخاً في ماء الورد . وهذا الحيوان نادر لا يستسلم إلا للنساء ؛ فقد أزمع مولانا أوجول أن يتزوج ممن تظهر له بالباسليك ، فدعني أبحث إن شئت ؛ فقد ترى ما أتعرض له إن ظفرت إحدى صاحباتي من دوني بالباسليك . »

وقد ترك زديج هذه السورية وصاحباتها يبحثن عن الباسليك ، ومضى في المرج يسعى أمامه . حتى إذا بلغ شاطئ الجدول رأى سيدة أخرى مستقلة لا تبحث عن شيء ، وكان قدها يظهر فخماً وقد ألقى على وجهها نقاب ، وكانت منحنية نحو الجدول ترسل من فمها زفرات عميقة . وقد أخذت بيدها عوداً صغيراً جعلت تخط به حروفاً على الرمل الدقيق المنبسط بين العشب والجدول . وقد

أحس زديج الحاجة إلى أن يتعرف ما كانت هذه السيدة تخط من حروف ؛ فدنا وتبين حرف الزاي ، ثم حرف الألف ، ثم ظهر حرف الدال ، فأخذته رعدة ، ولم يبلغ الدهش من أحد قط ما بلغه منه حين رأى الحرفين الأخيرين من اسمه . فلبث ساعة ساكناً ، ثم قطع الصمت بصوت متهدج قائلاً : « أيتها السيدة الكريمة ، عفوك عن غريب بأئس إذا اجترأ فسألك بأى مصادفة مدهشة يجد هنا اسم زديج . » فلما سمعت السيدة هذا الصوت ، وهذه الألفاظ رفعت لقاها بيد مرتعدة ، ثم نظرت إلى زديج ، ثم صاحت صيحة فيها الحنان والدهش والفرح ، ثم صرعتها العواطف المختلفة التى أخذت نفسها من كل وجه فخرت مغشياً عليها بين ذراعيه . وكانت هذه السيدة هى أستارتيه ، هى ملكة بابل ، هى التى كان زديج يعبدها ويلوم نفسه على عبادتها ، هى التى بكى عليها ما بكى ، وخاف عليها ما خاف . فظل ساعة لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، وقد وجه لحظه إلى عيني أستارتيه اللتين ، كانتا قد أخذتا تتفتحان فى فتور وخجل وحنان . هنالك صاح زديج : « أيتها القوة الخالدة التى تدبر مصير الناس ، أيمكن أن تردى إلى أستارتيه ؟ فى أى زمان فى أى مكان ، فى أى جال ألقاها . » ثم جثا أمام أستارتيه ومرغ جبهته فى التراب عند قدميها . فتهنئه ملكة بابل وتجلسه إلى جانبها على شاطئ الجدول ، ثم تسمع غير مرة عينيها اللتين كانتا لا تجفان إلا لتستأنفا سكب الدموع . وكانت تستأنف عشرين مرة حديثها الذى كان يقطعه الأنين . وكانت تسأله عن المصادفة التى جمعت بينهما ، ثم تصرفه عن الرد عليها بأسئلة أخرى تلقىها عليه . وكانت تبدأ قصة آلامها ثم تقطع ذلك لتعرف من آلام زديج ما كانت تجهل . ثم انتهيا آخر الأمر إلى تهدئة ما سيطر على نفسيهما من اضطراب ، وقص زديج عليها فى حديث موجز ما ألم به من الخطوب . ثم قال : « ولكن أيتها البائسة العزيزة كيف أتيج لى أن ألقاك فى هذا المكان المنعزل فى زى الإماء مرافقة نساء أخريات يبحثن عن الباسليك ليطبخن فى ماء الورد تنفيذاً لأمر الطيب ؟ »

قالت الحسناء أستارتيه :

— سأدعهن يبحثن عن الباسليك ، وسأبنيك بكل ما احتملت وبكل ما أتجاوز عنه للأقدار بعد أن أتاكت لى لقاءك . لقد علمت أن الملك زوجى

قد أنكر أن تكون أحب الناس إلى النفوس . ومن أجل هذا أزمع ذات ليلة ان يشنقك ويسمى . وقد علمت كيف أذن الله للقمم الأخرس أن ينبئن بما دبر الملك العظيم . وما كاد الوفي كادور يكرهك على أن تطيع أمرى وتفر من بابل حتى دخل على بعد أن نفذ إلى القصر من باب سرى . ومن هناك اختطفنى وذهب بى إلى معبد أوروزماد حيث خبأنى أخوه الكاهن فى خوف تمثال عظيم تستقر قاعدته عند أساس المعبد ، ويبلغ رأسه قبتة . هنالك أقمت كالمدفونة . ولكن الكاهن كان يخدمنى ويوفر لى كل حاجاتى بحيث لم ينقصنى شئ مما لا بد منه . ثم لم يسفر الصبح حتى دخل غرقى صيدلى الملك يحمل شراباً مزاجه سم نافع من البنج والأفيون والشوكران والخربق وخانق الذئب . وذهب موظف آخر إلى قصرى ومعه جبل من حرير أزرق ، فلم يوجد منا أحد . وأزمع كادور أن يخدم الملك فأقبل إليه يشكونى ويشكوك ، وزعم أنك اتخذت طريقك إلى الهند ، وأنى اتخذت طريقى إلى مصر ، فأرسل السعاة فى أثرك وفى أثرى .

« وكان الذين يطلبونى لا يعرفونى . ولم أكن قد أظهرت وجهى قط إلا لك بمحضر من الملك وبأمره . فمضوا يطلبونى على هدى الصورة التى وصفت لهم عليها ، فصادفوا على حدود مصر امرأة لها قامتى ، ولعلها أن تكون أجمل منى . وكانت باكية هائمة . فلم يشكوا فى أنها ملكة بابل ، فحملوها إلى مؤبدار . فلما رأى الملك خطأهم أخذه غضب عظيم ، ولكنه تأمل ملامح هذه المرأة ، فرأى جلالها وبهجتها ، فسكت منه الغضب وأسرع إليه العزاء . وكانت هذه المرأة تسمى ميسوف وقيل لى بعد ذلك إن هذا الاسم معناه عند المصريين الجاحمة الحسناء . وكانت جاحمة حقاً ، ولكن مهارتها لم تكن أقل من جموحها ، وقد أعجبت مؤبدار وتسلطت عليه ، حتى أعلن أنها أصبحت له زوجاً . وهنالك ظهر خلقها كله ، فاندفعت فى غير خوف إلى كل ما أوحى إليها خيالها من آيات الجنون . وقد أرادت أن تكره عظيم الكهنة ، وكان شيخاً كبيراً قد أخذه النقرس ، على أن يرقص بين يديها ، فلما أبى اضطهده أشد الاضطهاد . وقد أمرت صاحب خيلها أن يصنع لها كعكة من الحلوى . وقد اجتهد صاحب الخيل فى أن يقنعها بأنه ليس صاحب هذه الصناعة ، ولكنها أبت إلا أن يطيع ، ثم عاقبته بعد ذلك لأن كعكته أصابها بعض الحريق . وقد اختارت قزمها

لنصب صاحب الخيل ، وجعلت سياسة الدولة إلى أحد خدم القصر . وكذلك حكمت مدينة بابل ، وكان الناس جميعاً يذكرونني أسفين . أما الملك الذي كان رجلاً شريفاً مستقيماً إلى اليوم الذي أزمع فيه أن يقتلني ويشنقك ، فكان يظهر كأنما أغرق فضيلته فيما استأثر به من حب عظيم للجاجة الحسنة . فلما كان يوم العيد المقدس سعى إلى المعبد ، ورأيته جاثياً أمام التمثال الذي كنت أستخفي فيه وهو يستنزل عطف الآلهة على ميسوف ، فرفعت صوتي ضائعة به : « إن الآلهة يأبون أن يسمعوا لملك أصبح طاغية ، وهم أن يقتل امرأة عاقلة ليتزوج مكانها امرأة خرقاء . » وقد صدم مؤيدار بهذا الكلام حتى اختلط عقله . فكان الوحى الذى ألقينته وطغيان ميسوف كافيين ليفقد الرجل صوابه فلم تمض أيام حتى انتهى إلى الجنون .

« وكان جنونه الذى رأى الناس فيه عقاباً من السماء أول بوادر الثورة . فثار الناس وطاروا إلى أسلحتهم ، وأصبحت بابل التى طال عهدا بالبطالة والترف ميداناً لحرب أهلية منكزة ؛ فأخرجت من جوف التمثال ووضعت على رأس أحد الأحزاب . وأسرع كادور إلى ممفيس ليردك إلى بابل . ولكن أمير اركانيا لم يكد يعلم بهذه الأحداث حتى أقبل بجيشه ، فكون حزباً ثالثاً فى بلاد الكلدانيين وقد هجم على جيش الملك فأسرع الملك إلى لقائه فى حاقته المألوفة ومعه مصريته الخرقاء . فقتل مؤيدار مطعوناً ؛ وسقطت ميسوف بين أيدي المنتصرين . وأراد سوء الحظ أن يأخذنى أنا أيضاً جاعة من جند اركانيا وأن أقاد أمام الأمير فى نفس الوقت الذى قيدت إليه فيه ميسوف . وقد يتملكك فيما أظن أن تعلم أن الأمير وجدنى أجمل من المصرية ، ولكن قد يسوءك أن تعلم أنه أضافنى إلى حريمه ، وقال لى فى عزم وتصميم إنه سيسعى إلى متى فرغ من غارة كان يريد أن يتمها ، فقدّر لى . لقد انقطعت الأسباب بينى وبين مؤيدار ، وأصبح من الممكن أن أقترن بزديج ، وهذه الأقدار تسلمنى إلى أمير متوحش . وقد أجبته مع كل الكبرياء التى تتيحها لى منزلتى وعواطفى . لقد سمعت دائماً أن السماء تمنح أمثالى من الناس مزية تتيح لهم إذا نطقوا بكلمة أو نظروا نظرة ، أن يردوا إلى الضعة والاستخذاء كل جرى يحاول أن يريد هم بسوء . وكنت أتحدث حديث الملكة . ولكنى عوملت معاملة الوصيقة . فلم يلتفت إليّ اركانى إلى ، وإنما قال لخصيه الأسود إنه يجدى وقحة ولكنه

يرافى حسناء . ثم أمره أن يحسن العناية بي ويحملني على خطة الحظايا في الطعام والشراب ، حتى يردني رخصة مشرقة ، وحتى أصبح أهلاً لرضاه حين يتفضل فيمنحني قربه . وقد أعلنت إليه أني سأقتل نفسي ، فأجاب ضاحكاً أن الناس لا يقتلون أنفسهم ، وأنه خير بهذا النحو من الإباء ، ثم انصرف عني وكأنه رجل قد وضع ببغاء في حظيرته التي خصصها لغرائب الحيوان . فإلى أي هوان دفعت أكبر ملكات الأرض ! بل إلى أي حال دفع هذا القلب الذي كان موقوفاً على زديج ! »

هنالك جثا زديج أمامها وبلل ركبتيها بدموعه . فانهمته أستارتيه في حنان ومضت قائلة :

— فكنت أرى نفسي أسيرة عند همجي متوحش ، وخصماً لامرأة نجونة قد حبست معي . وقد حدثتني بقصتها في مصر . وقد عرفت من الملامح التي ذكرتها ومن وصف النجيب الذي كان يحملك ، ومن كل الظروف التي أحاطت بهذه القصة أن زديج هو الذي قاتل من أجلها . ولم أشك في أنك كنت مقبلاً في ممفيس ، فأزمعت أن آوي إليها . فقلت لها : « أيتها الحسنة مسوف إنك أنظر مني جالاً ، وأقدر مني على تلهية أمير أركانيا . أعينني على الحرب فسيصبح ذلك لك أن تتسلطى وحدك ، وأن تسعدى بالتخلص من منافسة . » وقد دبرت ميسوف معي وسيلة الحرب ، فأنسلت ذات يوم ومعى خادم مصرية « وكنت قد قاربت بلاد العرب ، ولكن قاطع طريق يسمى أربوجاد يعدو

عليّ فيخطفني فيبيعني لبعض التجار ، ويحملني هؤلاء إلى هذا القصر الذي يقيم فيه السيد أوجول . وقد اشتراني دون أن يعرف من أكون . وهو رجل صاحب لذة لا يعنيه إلا أن يعكف على الطعام ، وهو يعتقد أن الله لم يخلقه إلا ليجلس إلى المائدة . وهو ضخم قد تجاوزت ضخامته الحد حتى لتوشك أن تخنقه ، وليس لطيبه عنده خطر إذا حسن هضمه لما يلهتهم ، ولكنه يحكمه حكم الطاغية إذا أسرف على نفسه في الأكل . وقد ألقى في روعه أنه سيبرأ من علته إذا أكل الباسليك مطبوخاً في ماء الورد . وقد وعد السيد أوجول بالزواج أي إماءته تحمل إليه الباسليك . وها أنت ذا ترى أني أتركهن يجهدن في استحقاق هذا الشرف ، وما أعرف أني زهدت في الظفر بالباسليك بمقدار ما زهدت فيه منذ أذنت السماء لي في أن ألقاك . »

ثم أفضى كل من العاشقين إلى صاحبه بكل ماتوجيه العواطف التي طال كتبها ، وبكل ماتلهم الآلام والحب للقلوب الكريمة من حنان نبيل ، ورفعت الأرواح الموكلة بالحب حديثهما حتى بلغت به فلك الزهرة .

وقد عاد النساء إلى القصر دون أن يجدن شيئاً . ومثل زديج بين يدي أوجول متحدثاً إليه على هذا النحو : « لتبسط العافية الخالدة من السماء لتعني بحياتك كلها . إني طبيب ، سمعت بعلتك فأسرعت إليك أحمل الباسليك مطبوخاً في ماء الورد . ولست أطلب لذلك ثمناً ان اقترن بك ، وإنما أطلب أن تعتق أمة شابة بابلية حملت إلى هذا القصر منذ أيام ، وأنا زعيم أن أكون في مكانها من الرق إن لم أشف الأمير العظيم أوجول . »

وقد قبل عرض زديج ، وسافرت أستارتيه إلى بابل ومعها خادمة ، وقد وعدته بأن ترسل إليه في أقرب وقت رسولا ينبئه بكل ما يجري في بابل من الأحداث . وكان وداعهما مفعلاً بالحنان كما كان لقاؤهما .

وقد جاء في كتاب الزند العظيم أن ساعة اللقاء وساعة الوداع هما أخطر ساعات الحياة . وكان زديج يحب الملكة بمقدار ما كان يؤكد لها حبه ، وكانت الملكة تحب زديج أكثر مما كانت تعلن إليه .

ثم قال زديج لأوجول : « سيدى إن الباسليك الذى أحمله لا يؤكل وإنما تنالك خصائصه من طريق السام . وقد وضعته في قربة منفوخة مغطاة بجلد رقيق ، فيجب أن تدفع هذه القربة بكل ماتقدر عليه من قوة وأن أردّها عليك . وإذا مضينا على هذا النحو أياماً قليلة فسترى إلى أى حد يستطيع فى أن يصل . » فلما كان اليوم الأول وجد أوجول مشقة عظيمة في التنفس حتى ظن أنه ميت من الإعياء . ولما كان اليوم الثانى تعب أقل من أمس ونام أحسن مما نام أمس . ولم تمض أيام ثمانية حتى استرد كل قوته وخفته ومرحه الذى ألفه في أعوامه السعيدة . قال له زديج : « إنما لعبت بالكرة وأخذت نفسك بالقناعة ، فتعلم أن الباسليك لا يوجد في الطبيعة ، وأن صحة الانسان رهينة بالقناعة والتمرين ، وأن الفن الذى يتيح للانسان أن يجمع بين الصحة والشره إنما هو فن خيالى يشبه حجر الفلاسفة وطوالع النجوم وسحر الكهان . » وقد أحس طبيب أوجول بأن زديج قد أصبح خطراً بالقياس إليه ، فاتفق مع صيدلى القصر على أن يرسل زديج يلتمس الباسليك في العالم الآخر . وكذلك

بعد أن عوقب زديج على إحسانه أصبح الآن معرضاً للموت لأنه أبرأ من العلة أميراً شرهاً . وقد دعى إلى وليمة فاخرة . وكان قد تقرر أن يوضع له السم في الدور الثاني من أدوار المائدة . ولكنه في الدور الأول تلقى كتاباً من الحسناء أستارتيه ، فترك المائدة ومضى لوجهه . وقد قال زرادوشث العظيم : « إن الإنسان الذي تحبه عادة حسناء ينقذ دائماً من المشكلات في هذه الحياة . »

## الفصل التاسع عشر

### المبارزة

كان استقبال الملكة في بابل مليئاً بالعطف على ملكة حسناء بائسة . وكانت بابل في ذلك الوقت تظهر هادئة مطمئنة ، فقد قتل أمير إركانيا في بعض المواقع ، وقرر البابليون المنتصرون أن أستارتيه ستكون زوجاً للأمر الذي يختارونه ليكون لهم ملكاً . وقد أبوا أن يكون أرفع مكان في العالم وهو مقام الذي سيقترن بأستارتيه ويصبح ملكاً على بابل موضوعاً للدسائس والكيد ، فأقسموا ليلكن على أنفسهم أعظم الناس حظاً من الشجاعة والحكمة . وقد أنشئ على فراسخ من بابل ميدان عظيم أحاطت به مدرجات فخمة قد زينت أحسن زينة وأروعها ، وكان على المصطريين أن يذهبوا إليه مدججين بالسلاح ، وكان لكل واحد منهم من وراء المدرجات بيت يعتزل فيه فلا يراه أحد ولا يرى أحداً . وكان عليهم أن يطاعنوا بالرمح أربع مرات ، وكان على الذين يتاح لهم أن يقهروا أربعة فرسان أن يصرعوا فيما بينهم ، حتى إذا أتيح لأحدهم أن ينتصر على خصومه جميعاً ويصبح سيد الميدان أعلن أنه هو الفائز في المسابقة ، ثم وجب عليه أن يأتي بعد أربعة أيام مدججاً بالسلاح ليحل الألفاز التي يعرضها عليه الكهان ، فإذا لم يوفق لحلها لم يرق إلى العرش ووجب استئناف المبارزة من جديد حتى نظفر المدينة بالمنتصر الذي يقهر الخصوم في الميدان ، ويحل الألفاز أمام الكهنة ؛ لأن البابليين كانوا يرون ألا يملك عليهم إلا من كان شجاعاً حكماً .

وكان يجب أن تحرس الملكة في أثناء هذه الأيام حراسة شديدة دقيقة ، ولا يسمح لها إلا بأن تشهد المبارزة وقد ألفت على وجهها نقاباً ، ولكن لا يؤذن لها أن تتحدث إلى أحد من المتنافسين حتى لا تكون محابة ولا يقع جور . بهذا كله كتبت أستارتيه إلى خليلها آملة أن يظهر في سبيلها من الشجاعة والذكاء ما لا يستطيعه أحد غيره . وقد وصل زديج إلى شاطئ الفرات قبيل ذلك اليوم العظيم ، وقد سجل شعاره بين شعار غيره من المتنافسين سائراً وجهه مخفياً اسمه كما يقضى بذلك القانون ، ثم ذهب إلى البيت الذي خصصته له القرعة . وكان صديقه كادور قد عاد إلى بابل بعد أن بحث عنه في مصر بغير طائل ، فأرسل إلى بيته لأمةً كاملة كانت الملكة قد بعثت بها إليه ، وقاد إليه من عندها كذلك أجمل جواد من خيل فارس . وقد عرف زديج الملكة في هديتها ، فاستمد من هذه المعرفة قوة وثقة وأملا .

فلما كان الغد أقبلت الملكة فجلست تحت مظلة يزينها الجواهر ، واكتظت المدرجات بالسيدات وبالرجال من جميع الطبقات ، وظهر المتنافسون في الميدان ، وأقبل كل واحد منهم فوضع شارته عند قدم الكاهن الأعظم . ثم أجريت القرعة بين الشارات فكانت شارة زديج هي الأخيرة . وكان أول من تقدم سيد يدعى إيتوباد ، وكان عظيم الثراء كثير الغرور قليل الشجاعة ، أخرق قليل العقل ؛ وكان خدمه قد ألقوا في روعه أن رجلاً مثله يجب أن يكون ملكاً . فأجابهم : « إن رجلاً مثلي يجب أن يملك . » فسلحوه من رأسه إلى قدمه . وكان يحمل لأمة مرصعة بالخضرة وعلامة خضراء ورمحاً تزيينه شرائط خضر . وقد لاحظ الناس حين رأوا سياسته لفرسه أنه ليس هو الرجل الذي قدر له أن يستأثر بصولجان بابل . وقد استطاع أول فارس سعى إليه أن يزعجه عن مكانه ، واستطاع الثاني أن يكبه على عجز فرسه وقد ارتفعت ساقاه في الهواء وامتدت ذراعه . وقد استطاع إيتوباد أن يستوى في سرجه ولكن على نحو غريب أضحك منه الناس جميعاً . وأقبل الثالث فلم يتكلف استعمال رمحه وإنما مر إلى جانبه فأخذه من ساقه اليمنى وألقاه على الرمل إلقاء ، وأسرع ساسة الميدان إليه ضاحكين فردوه إلى سرجه . ولكن البارز الرابع يأخذه من ساقه اليسرى ويلقيه على الرمل من ناحيته الأخرى ، ثم قيد تشيعه السخرية إلى بيته حيث كان يجب أن ينفق الليل بحكم القانون .

وكان يقول وهو يسعى ظالماً : « أى مغامرة بالقياس إلى رجل مثلى ! » وأدى الفرسان الآخرون واجبه كأحسن ما استطاعوا ، فكان منهم من هزم مبارزين متتابعين ومنهم من وصل إلى أن يهزم ثلاثة . ولم ينتصر على أربعة إلا أمير أوتام . ثم برز زديج فأزعج عن خيلهم فرساناً أربعة في كل رشاقة ممكنة . ولم يبق إلا أن يعرف أيهما سيكون له الفوز : الأمير أوتام أم زديج . وكان الأول يحمل لأمة زرقاء مذهبة علامة من لونه ، وكانت لأمة زديج بيضاء . وكانت أمانى الناس كلهم مقسمة بين الفارس الأزرق والفارس الأبيض . وكان قلب الملكة يخفق ، وكانت تتوسل إلى السماء لتنتصر اللون الأبيض . وقد تبادل الفرسان الكر والفر في خفة ورشاقة وتبادلاً طعنات رائعات بالرمح ، وكانا جميعاً ثابتين في سرجيهما ، حتى تمنى الناس كلهم إلا الملكة أن يكون لبابل ملكان . ثم أجهد الفرسان وانحط الرحمان ، فعمد زديج إلى هذه الحيلة وهى أنه أسرع فاستدبر جواد الفارس الأزرق ثم وثب فأصبح ديفه على فرسه ، ثم أخذه من خصره فانتزعه من سرجه فألقاه على الأرض ، يأخذ مكانه من السرج ويدور حول أوتام الملقى صريعاً على الأرض . هنالك ضجت المدرجات كلها : « الفوز للفارس الأبيض ! » ويستأثر الغضب بأوتام فينهض ويستل سيفه ، ويثب زديج عن فرسه والسيف مصلت في يده ، وهما هذان في الميدان يختصمان خصومة تنتصر فيها القوة مرة والخفة مرة أخرى ، وقد أخذ ريش خوذتهما ومسامير مفجريهما وخرز درعيهما تتطاير إلى بعيد لعنف ما كانا يتبادلان من الضربات ، وكلاهما يضرب بجد السيف وعرضه عن يمين وعن شمال ، على الرعوس وعلى الصدور ، وهما يتأخران ويتقدمان ثم يتبادلان التحدى ، ثم يلتحان ، ثم يأخذ كل منهما بصاحبه ثم ينعطقان كأنهما الحيتان ، ثم يهجم كل منهما على صاحبه كأنه لأسد ، والنار تتطاير في كل لحظة من وقع ضرباتهما . ثم يثوب زديج إلى نفسه ساعة فيقف ثم يحتال ثم يمر إلى جانب أوتام فيلقيه على الأرض ويجرده من سلاحه ، ويصيح أوتام : « أيها الفارس الأبيض أنت وحدك أهل لعرش بابل . » وقد بلغ الفرح بالملكة أقصاه . ثم يقاد الفارس الأزرق والفارس الأبيض كل إلى بيته شأن المتنافسين جميعاً كما قضى بذلك القانون . وأقبل خدم خرس يحملون إليهم الطعام . وتستطيع أن تقدر أن قزم الملكة الأحرص هو الذى حمل الطعام إلى زديج .

ثم خلى بينهما وبين النوم ليقبل المنتصر إذا كان الغد فيحمل شارته إلى الكاهن الأعظم ليمتحنها ويعرف صاحبها .  
وقد نام زديج وإن كان عاشقاً ؛ لأن الجهد كان قد بلغ منه غايته .  
أما إيتوباد الذى كان بيته قريباً من بيت زديج فلم ينام ، وإنما نهض أثناء الليل ودخل بيت زديج فأخذ لأخته البيضاء وشارته وترك له لأخته الخضراء .  
فلما ذر قرن الشمس ذهب إلى الكاهن الأعظم وأعلن إليه أن رجلاً مثله هو الفائز . ولم يكن الناس ينتظرون ذلك ، ولكن فوزه أعلن على حين كان زديج لا يزال مغرقاً فى نومه . وقد عادت أستارتيه إلى بابل دهشة قد ملأ الألم قلبها . وكانت المدرجات قد كادت تخلو من النظارة حين استيقظ زديج فالتمس سلاحه فلم يجد إلا هذه اللأمة الخضراء ، فاضطر إلى أن يدخل فيها لأنه لم يجد شيئاً آخر يستر به جسمه . وقد لبس هذا السلاح دهشاً مغضباً وتقدم فى أدواته الغريبة هذه .

وجعل كل من بقى فى المدرجات والميدان يستقبلونه ساخرين منه يحيطون به ويواجهونه بالاهانة . ولم يلق أحد قط مثل مالقى من الاهانة الخزية .  
ففقده صبره وفرق الناس عنه بسيفه ، ولكنه كان حائراً لا يدري ماذا يصنع .  
لم يكن يستطيع أن يرى الملكة ، ولم يكن يستطيع أن يطالب بلأخته البيضاء التى سرقته منه ، فلو قد فعل ذلك لفضح سر الملكة . وكذلك اجتمع عليه الألم والغضب والقلق ، وجعل يمشى على شاطئ الفرات مقتنعاً بأن القضاء قد كتب عليه شقاء محتوماً لا مخرج منه ، مستعرضاً فى نفسه مصائبه كلها من المرأة التى كانت تكره العور إلى نكبتها فى سلاحه . وكان يقول لنفسه : « هذا جزائى لأنى استيقظت متأخراً . ولو قد نمت أقل مما نمت لأصبحت ملك بابل وزوج أستارتيه . وإذن فالعلم والأخلاق والشجاعة لم تنته بى إلا إلى الشقاء . » ثم أفلتت منه شئ من الاعتراض على القدرة الإلهية ، وكاد يؤمن بأن العالم خاضع لقضاء قاس يظلم الأخيار ويسبغ النعمة على الفرسان الخضر . وكان مما يحزنه اضطرابه إلى حمل هذه الأمة الخضراء التى عرضت صاحبها لكثير من السخرية . وما هى إلا أن يمر به بعض الباعة فيبيعه سلاحه بثمان بخس ويشتري منه ثوباً وقلنسوة . ويمضى فى هذا الزى مصاحباً شاطئ الفرات ناعياً على القدرة الإلهية أنها تظلمه دائماً .

## الفصل العشرون

### الناسك

وقد لقي في طريقه ناسكاً قد انتشرت لحيته على صدره ، وتدلّت حتى بلغت حزامه . وكان في يده كتاب يقرأ فيه معنياً أشد العناية . فوقف زديج وانحنى له في إجلال . وقد رد الناسك تحيته في وقار ورفق ، حتى رغب زديج في أن يتحدث إليه . فسأله في أي كتاب ينظر ؟ قال الناسك : « هو كتاب القضاء ، أتريد أن تقرأ فيه شيئاً ؟ » ثم وضع الكتاب في يد زديج الذي جعل ينظر فيه دون أن يتبين حرفاً من حروفه على علمه المتقن بكثير من اللغات ، وكان هذا سبباً في ازدياد حبه للاستطلاع . قال له هذا الأب الرحيم : « إني لأراك شديد الحزن . » قال زديج : « واحسرتاه ما أكثر ما يحزنني ! » قال الشيخ : « أتأذن في أن أصبحك لعل أن أنفك ؟ فقد استطعت أحياناً أن أشيع العزاء في نفوس البائسين . » وقد أحس زديج شيئاً من الاحترام لمظهر الناسك ولحيته وكتابه ، ووجد في حديثه نوراً ممتازاً ، وكان الناسك يتحدث عن القضاء والعدل ، والأخلاق ، والخير الأعظم ، وضعف الإنسان ، والفضيلة والبرذيلة ، في بلاغة قوية مؤثرة ، حتى أحس زديج كأنما يجذبه إليه سحر لا يقهر . فألح عليه في ألا يتركه حتى يبلغ بابل . قال الشيخ : « إني أطلب إليك هذا الفضل . فأقسم لي بأوروزماد ألا تفارقني إلى أيام مهما أفعل . » فأقسم زديج ومضيا معاً . وانتهى المسافران مع المساء إلى قصر فخيم . وهناك طلب الناسك الضيافة لنفسه وللشباب الذي يصحبه ، فأدخلهما البواب الذي كانت تظهر عليه شارات السيادة إلى القصر في سى من العطف المستخف . ثم قدما إلى رئيس الخدم ، فأظهرهما على جناح صاحب القصر ، ثم أذن لهما بشهود المائدة ، وأجلسا في أقصاها دون أن ينزل صاحب القصر فيمنحهما طرفه ، ولكنهما طعما كما طعم غيرهما ، واطهر الخدم لهما رقة وسماحة وسخاء . ثم قدم إليهما لغسل أيديهما

طست من الذهب مرصع بالزمرد والياقوت . ثم قيذا إلى حجرة جميلة أنفقا فيها الليل ، فلما كان الغد أقبل خادم فدفع إلى كل واحد منهما قطعة من ذهب ثم صرفهما .

فلما كانا في الطريق قال زديج : « نihil إلى أن صاحب القصر رجل كريم وإن كان فيه شيء من كبرياء ، وهو على كل حال حسن الضيافة . » وبينما كان يقول هذا الكلام رأى جيباً عريضاً كان يحمله الشيخ وقد انتفخ انتفاخاً عظيماً ، فلما نظر تبين الطست الذهبي المرصع بالجواهر ، وقد سرقه الشيخ . فلم يجرؤ أول الأمر على أن يقول شيئاً ، ولكنه كان في دهش مؤلم .

فلما انتصف النهار وقف الشيخ أمام دار صغيرة كان يسكنها رجل غني بخيل ، فاستضافه ساعات من نهار ، فتلقاهما خادم شيخ أشعث لقاء خشناً ، ثم قادهما إلى الاسطبل ، وقدم إليهما شيئاً من زيتون فاسد وخبزاً رديئاً وجعة حامضة . فأكل الناسك وشرب راضياً عن طعامه الغليظ ، كما رضى أمس عن طعامه ذاك الرقيق ، ثم اتجه إلى الخادم الشيخ الذي كان يراقبهما ليرى لعلهما يسرقان شيئاً وليستحكما على الرحيل ، فوضع في يده الدينارين اللذين تلقاهما مصباحاً ، وشكر له عنايته بهما . ثم قال : أرجو أن تتيح لي التحدث إلى سيدك . » فأدخلهما الخادم دهشاً . قال الناسك : « أيها السيد العظيم ، ليس يسعني إلا أن أشكر لك في خضوع نبل لقائك لنا . فتفضل بقبول هذا الطشت الذهبي آية على اعترافي بالجميل . » وقد كاد البخيل يصرع من الدهش . ولم يتح له الناسك أن يفيق من دهشه ، وإنما مضى مسرعاً يتبعه صاحبه الشاب . قال زديج : « ما هذا الذي أراه يا أبت ؟ ما أرى أنك تشبه غيرك من الناس ، إنك تسرق طستاً ذهبياً من أمير تلقانا أحسن اللقاء وتمبه لبخيل عاملك أحقر المعاملة ! » قال الشيخ : « تعلم يا بني أن هذا الأمير العظيم الذي لا يستقبل الناس إلا غروراً ليظهرهم على ثرائه سيصبح منذ اليوم عاقلاً حذراً . وسيتعود البخيل أن يكون مضيافاً فلا تدهش لشيء واتبعني . » فلم يدر زديج أيصحب أعظم الناس حظاً من الجنون أم أعظمهم حظاً من الحكمة . ولكن الناسك كان يتحدث في قمة وكان زديج مرتبطاً بقسمه فلم يسعه إلا أن يتبع الشيخ . فلما كان الساء بلغا دارا متقنة البناء ، ولا يظهر عليها ما يدل على الاسراف ولا ما يدل على البخل . وكان صاحب الدار فيلسوفاً قد اعتزل الناس وعكف

على الحكمة والفضيلة ، وكان على ذلك لا يحس مللاً ولا سأمًا . وكان قد راقه أن يقيم هذه الدار ، وأن يستقبل فيها الغرباء لا مستعلياً ولا مغروراً . فسعى من تلقاء نفسه إلى السائحين وقادهما إلى حجرة وثيرة ليستريجا . ثم أقبل بعد حين فدعاهما إلى مائدة نظيفة وطعام متن ، وتحدث إليهما رفيقاً متحفظاً عن الثورة الأخيرة التي اضطربت لها بابل . وقد ظهر أنه مخلص للملكة أشد الاخلاص ، وأنه كان يتمنى لو ظهر زديج في الميدان واستبق مع المستبقين ليظفر بالتاج . ثم قال : « ولكن الناس لا يستحقون أن يملك عليهم رجل مثل زديج » وكان زديج يحمر خجلاً ويشعر بأن آلامه تنضاعف . وقد اتفق القوم أثناء الحديث على أن الأشياء في هذا العالم لا تجرى على ما يجب الحكماء ، وقد أكد الناسك دائماً أن الناس لا يعرفون طرق القدرة الإلهية ، وأنهم يخطئون حين يحكمون على كلِّ لا يعرفون إلا أيسر أجزائه .

ثم تحدثوا عن الشهوات . فقال زديج : « ما أشد خطرهما ! » قال الناسك : « إنما الشهوات هي الرياح التي تنتشر قلاع السفينة ، وهي تغرق السفينة أحياناً ، ولكن السفينة لا تستطيع أن تجرى من دونها . إن الماراة تدفع الانسان إلى الغضب ، وقد تحلب عليه العلة ، ولكن الانسان لا يستطيع أن يعيش بدونها . كل شيء في هذه الأرض خطر ، وكل شيء في هذه الأرض ضروري لا بد منه . »

ثم تحدثوا عن اللذة ، وأثبت الناسك أنها منحة من الآلهة ، قائلاً : « إن الانسان لا يستطيع ان يعطى الحس ولا الفكرة ، وإنما يتلقى كل شيء تأتية اللذة والألم من غيره كما يأتته شخصه هو . »

وكان زديج إعجب حين يرى رجلاً قد أتى تلك الأعمال الغريبة يفكر على هذا النحو الدقيق .

فلما أخذ القوم يحظهم من سمر تمتع لذيق قاد المضيف ضيفه إلى حجرتهما شاكرًا لله أن أرسل إليه رجلين على هذا الحظ من الحكمة والفضيلة . ثم قدم إليهما شيئاً من مال بطريقة سمحة كريمة لا تؤذى النفوس . فاعتذر الناسك وودع مضيفه زاعماً أنه يريد أن يسافر إلى بابل قبل أن يشرق النهار . وكان وداعهم رقيقاً ، وكان زديج يسعر بشيء من الاحترام لهذا الرجل الحبيب إلى القلوب .

فلما صار الناسك وصاحبه في حجرتهما أثنيا ثناء جميلا على مضيفهما . ثم أيقظ الشيخ رفيقه من آخر الليل قائلاً له : « يجب أن نرحل ، ولكنى أرى قبل أن يستيقظ الناس أن أترك لهذا الرجل آية على ما أضمر له من حب وإكبار . » قال ذلك وأخذ مصباحاً فأشعل النار في الدار . وقد روع زديج فجعل يصيح ، وهم أن ينفع الشيخ من اقرار هذا الاثم المنكر . ولكن الناسك كان يجذبه بقوة لا تقاوم على حين كانت الدار تشتعل ؛ والناسك ينظر إليها من بعيد في هدوء أى هدوء قائلاً : « الحمد لله هذه دار مضيئة قد دمرت تدميراً . ما أسعد هذا الرجل ! » فلما سمع زديج هذا الكلام هم أن يضحك وأن يضرب الشيخ وأن يسبه وأن يمضى لوجهه . ولكنه لم يصنع من ذلك شيئاً ، وإنما خضع لسلطان الناسك وتمعه كارهاً إلى الرحلة الأخيرة .

وقد انتهت بهما هذه الرحلة إلى أرملة محسنة فاضلة ، يعيش معها فتى قريب لها في الرابعة عشرة من عمره ، وكان جميلاً محبباً وكان أملاًها الوحيد ، وقد ضيفتهما كأحسن ما استطاعت ، فلما كان الغد أمرت قريبها أن يصحب المسافرين إلى جسر قد قطع منذ حين فأصبح عبوره خطراً على الذين لا يعرفونه . ومضى الفتى أمامهما حفيظاً بهما . فلما بلغوا الجسر قال الناسك للفتى : « أقبل فانى أريد أن أشكر لعمتك صنعها . » ثم يأخذ بستره ويلقيه في النهر . ويسقط الفتى ثم يطفو ثم يستخفى في لجة الماء . هنالك لم يستطع زديج صبراً فصاح : « يا لك من وحش ! يا لك من مجرم لم ير الناس مثله ! » قال الناسك : « لقد وعدتني أن تصبر على ما ترى . فتعلم أن تحت هذه الدار التى دمرتها القدرة الإلهية كنزاً عظيماً قد ظفر به صاحبها . وتعلم أن هذا الفتى الذى قتلته القدرة الإلهية لو عاش لقتل عمته بعد عام ، ولقتلك أنت بعد عامين . » قال زديج : « من أنباك بهذا أيها الهمجي ؟ وهبك قرأت هذا في كتابك أمن حقلك أن تقتل صبياً لم يسئ إليك ؟ »

وبينا كان البابلى يتكلم نظر فاذا الشيخ قد فقد لحيته وظهرت على وجهه ملامح الشباب ، وقد زال عنه ثوب الناسك ونبئت في جسمه المهيب أجنحة أربعة . قال زديج ، وهو يمشو : « أى رسول السماء أيها الملك الإلهى فأنت إذن قد هبطت من أعلى عليين لتعلم إنساناً ضعيفاً هالِكاً أن يدعى لسلطان القضاء الخالد . » قال الملك جسراد : « إن الناس ليقولون في كل شئ دون أن يعلموا

شيئاً ، وقد كنت أشد الناس حاجة إلى أن تتعلم . « فاستأذنه زديج في أن يتكلم :  
« إني أتهم نفسي . ولكن أجرؤ على أن أسألك أن تجلولى شكاً يقوم بنفسى ؟ ألم  
يكن إصلاح هذا الصبي وتقويمه خيراً من إغراقه ؟ » قال جسراد : « لو قد  
أُتيح له أن يكون خيراً وأن يعيش ويتخذ زوجاً لقتل وقتلت معه زوجه وقتل  
معهما ابنهما . » قال زديج : « ماذا ؟ أليس من الجريمة والشقاء بد ؟ أليس بد  
من أن يلم الشقاء بالأخيار ؟ » قال جسراد : « إن الأشرار أشقياء دائماً ،  
وإنهم محنة تمتحن بهم قلة من الأخيار مفرقة في الأرض ، وليس من شر إلا وهو  
مصدر للخير . » قال زديج : « وما يمنع أن يوجد الخير ولا شر معه ؟ » قال  
جسراد : « إذن لتبدل الأرض غير الأرض وتتابع الأحداث على أسلوب آخر  
من الحكمة . وهذا الأسلوب من الحكمة الكاملة لا يمكن أن يوجد إلا في الملأ  
الأعلى حيث لا يستطيع الشر أن يرقى . وقد خلق الله مالا يعين من العوالم  
ليس منها واحد يشبه الآخر . وهذا الاختلاف العظيم آية على قدرته التي  
لا حد لها ، فليس من وقتين في الأرض ولا كرتين في حقل السماء تشبه إحداهما  
الأخرى . وكل ما تراه على هذه الذرة الضئيلة التي ولدت عليها قد قدر له مكانه  
تقديراً حسب النظام الثابت الذي أبدعه القادر على كل شيء . إن الناس يظنون  
أن هذا الصبي الذي هلك قد سقط في الماء مصادفة ، وأن المصادفة نفسها هي  
التي حرقت الدار . ولكن المصادفة لا وجود لها ؛ فكل شيء إما امتحان ، وإما  
عقاب ، وإما مكافأة ، وإما احتياط . تذكر ذلك الصياد الذي كان يرى نفسه  
أشقى الناس ، لقد أرسلك أورو زماذ لتغير مصيره . أيها الهالك الضعيف لا تعترض  
على من يجب أن يعبد . » قال زديج : « لكن . . . » وبينما كان يقول « لكن »  
كان الملك يرقى في السماء العاشرة . فجثا زديج ورفع إلى القدرة الإلهية عبادته  
وإذعانه . قال له الملك من أعلى السماء : « أسلك طريقك إلى بابل . »

## الفصل الحادى والعشرون

### الألغاز

مضى زديج فى طريقه هائماً ، وقد خرج عن طوره كرجل سقطت الصاعقة منه غير بعيد . فدخل بابل فى اليوم الذى اجتمع فيه المتنافسون فى بهو من أبهاء القصر ليمتحنوا بتفسير الألغاز ، وليجيبوا على أسئلة الكاهن الأعظم . وقد اجتمع الفرسان جميعاً إلا صاحب اللأمة الخضراء . فلم يكد زديج يظهر فى المدينة حتى اجتمع الشعب من حوله ، ولم تكن العيون تشبع من النظر إليه ، ولم تكن الأفواه تكف عن الثناء عليه ، ولم تكن القلوب تكف عن أن تمنى له الملك . وقد رآه الحسود فارتعش وحول وجهه ، ثم حمله الشعب إلى مكان الاجتماع . وأنبئت الملكة بمقدمه فتنازعها الخوف والرجاء ، وكان القلق ينهب نفسها نهباً ، ولم تكن تفهم لماذا كان زديج مجرداً من سلاحه ولا لماذا كان إيتوباد يحمل اللأمة البيضاء . فلما رأى المجتمعون زديج ارتفع بينهم ضجيج مختلط . وكان المجتمعون دهشين سعداء لحضره . ولكن لم يكن يؤذن إلا للفرسان الذين شاركوا فى المبارزة بشهود الاجتماع . قال زديج : « لقد بارزت كما بارز غيرى ، ولكن رجلاً غيرى يحمل سلاحى فى هذا المكان ؛ وإلى أن يتاح لى الشرف باثبات ذلك أوجو أن يؤذن لى بالمشاركة فى تفسير الألغاز . » وأخذت الأصوات ، فلم يتردد أحد فى قبوله لأن أمانته وصدقه وشرفه كانت لا تزال مستقرة فى القلوب .

وقد بدأ الكاهن الأعظم فالتقى هذا السؤال : « ما شئ هو أطول الأشياء فى العالم وأقصرها ، وأسرع الأشياء وأبطؤها ، وأشد الأشياء استعداداً للتقسام وأشدّها امتداداً ، وأشد الأشياء تعرضاً للاهمال وأشدّها تعرضاً للحزن عليه ، بغيره لا سبيل إلى أن يصنع شئ ، وهو يزدرد كل ما هو صغير ، ويحيى كل ما هو كبير ؟ » وكان على إيتوباد أن يتكلم ، فأجاب بأن رجلاً مثله لا علم له بالألغاز

وحسبه أنه انتصر برحه . قال بعض المتنافسين إن جواب الغز إنما هو الحظ . وقال بعضهم هو الأرض . وقال بعضهم هو النور . وقال زديج « إنه الزمان ليس شئ أطول منه لأنه مقياس الأبد ، وليس شئ أقصر منه ، لأنه يقصر عن آمالنا . وليس شئ أبطأ منه للمنتظر ، وليس شئ أسرع منه للمبتهج ، وهو يمتد في السعة إلى ما لا نهاية ، وينقسم في الصغر إلى ما لا نهاية ، والناس جميعاً يهملونه ، والناس جميعاً يأسفون على ضياعه ، لا يصنع شئ بدونه ، وهو ينسى ما لا يستحق الخلود ، ويخلد جلائل الأعمال . » فأجمع القوم على أن زديج قد أصاب .

ثم سئل بعد ذلك : « ما شئ يقبل ولا يشكر معطيه ، وينعم الناس به دون أن يعرفوا كيف ينعمون به ، ويعطونه غيرهم دون أن يعرفوا أين هم منه ، ويفقده الناس على غير وعى منهم ؟ »

فأدلى كل بجوابه ، وقال زديج إنه الحياة . وفسر سائر الألغاز على هذا النحو من اليسر ، وكان إيتوباد يقول : ليس شئ أيسر من هذه الألغاز ، ولو قد أراد لأجاب عليها في غير مشقة ، وقد ألفت أسئلة حول العدل والخير الأعظم وفن الحكم ، فكانت أجوبة زديج أقوم الأجوبة . وكان الناس يقولون من حوله إن مما يحزن حقاً أن يكون صاحب هذا العقل الممتاز فارساً غير ممتاز . قال زديج : « أيها السادة العظام ! لقد شرفت بالانتصار في الميدان ، وإنما

اللائمة البيضاء هي لأمتي ، وقد أخذها السيد إيتوباد أثناء نومي . وقد رأى في أكبر الظن أنها ألبق به من لأمته الخضراء . وإني مستعد أن أثبت أمامكم بشوي هذا ، وسيفي ، على رغم كل ما يحمل هو من هذه اللائمة البيضاء التي اختلسها مني . إني أنا الذي أنتصر على الأمير أوتام . »

وقد قبل إيتوباد هذا التحدى واثقاً بنفسه أعظم الثقة . ولم يكن يشك في أنه وقد حمل الخوذة والدرع والمغفر سينتصر في غير عناء على خصم ليس عليه إلا ثوب وقلنسوة . وقد استل زديج سيفه وحيا الملكة التي كانت تنظر إليه يتنازعها الفرح والخوف . واستل إيتوباد سيفه ولم يحى أحداً . ثم تقدم إلى زديج كما يتقدم رجل لا يهاب شيئاً . وكان يوشك أن يشدخ رأسه . وقد اتقى زديج هذه الضربة معارضاً بقوة سيفه ضعف خصمه ، بحيث انكسر سيف إيتوباد هنالك هجم زديج على خصمه فأخذ بتلايبه وصرعه على الأرض ، ثم أنفذ

ذبابه سيفه من ثنانيا الدرع قائلاً له : «دعنى أجردك من سلاحك وإلا قتلتك .»  
وقد دهش إيتوباد لسوء الحظ الذى ألمّ برجل مثله ، وخلق بين زديج وبين سلاحه  
وقد بدأ فنزع خوذته ، ثم درعه الفخمة ، ثم مغفره الجميل ، ثم لبس هذا  
كله وجرى فى لأمته هذه حتى جثا عند قدمى أستارتيه . وأثبت كادور فى سهولة  
أن هذه اللأمة هى لأمة زديج فنودى به ملكاً عن رضا من الناس جميعاً ، وخاصة  
من أستارتيه التى نعمت بعد كثير من الشقاء بأن ترى عاشقها خليقاً فى رأى  
العالم كله أن يصبح لها زوجاً . وعاد إيتوباد إلى قصره حيث يدعو خدمه مولاى ،  
وأصبح زديج ملكاً وأصبح سعيداً . وكان يتمثل فى نفسه ما قال له الملك  
جسراد : بل تذكر حبة الرمل التى أصبحت ماسة . وقد شكرت الملكة وشكر هو  
للأمة هذا الفضل . وترك زديج الجامعة الجميلة ميسوف تطوف فى أقطار  
الأرض ، وأرسل يدعو قاطع الطريق أربوجاد فرفعه إلى مرتبة حسنة فى جيشه ،  
ووعده بأن يرفعه إلى أرقى المراتب إن سار سيرة الجندى الشريف ، وأن يشقّه  
إن عاد إلى قطع الطريق .

ودعى سيتوك مع أملونا الحسنة من أعماق بلاد العرب ، فجعل على تجارة  
بابل . وأنزل كادور منزلة تلائم بلائه ووفاءه فأصبح صديق الملك ، وأصبح  
زديج هو الملك الوحيد الذى استطاع بين ملوك الأرض أن يكون له صديق  
مخلص . ولم ينس زديج القزم الأخرس . ومنح الصياد داراً جميلة . وقضى على  
أوركان أن يؤدى إليه مقداراً ضخماً من المال وأن يرد إليه امرأته ، ولكن  
الصياد وقد صار حكيماً أى أن يأخذ إلا المال .

ولم تتعز سмир الحسنة من خطئها حين ظنت أن زديج سيصبح أعور ، ولم تكف  
أزورا عن البكاء لأنها همت ذات يوم أن تجدع أنفه . وقد خفف زديج ألهما  
بما أهدى إليهما من الهدايا . ومات الحسود غيظاً وخزياً ، واستمعت الدولة  
بالسلم والحمد والرخاء . وكان هذا العصر أجمل عصر عرفته الأرض ؛ فقد حكمها  
فيه الحب والعدل . وكان الناس يحمدون زديج ، وكان زديج يثنى على الآلهة .

وهنا تنتهى المخطوطة التى تقص تاريخ زديج . والناس يعلمون أنه تعرض لمغامرات  
كثيرة أخرى قد سجلت تسجيلًا دقيقاً . فنرجو أن ينشرها المستشرقون إن وصلت إليهم